أمراض القلوب

خمسة وثلاثون مرضًا من أمراض القلوب
وطرق علاجها

لأم تميم
الدكتورة عزة بنت محمد

مكتبة مكة

مصنفات المؤلفة

- **الفقه الميسر** (٦ أجزاء) فقه مقارن - مكتبة مكة - القاهرة - طنطا (ت: ٠١٢٢٣٤٨٩٨٥٣).

- **الفروق الفقهية والتطبيقات المعاصرة** - رسالة دكتوراه - دار ابن رجب - القاهرة (ت: ٠١٢٢٢٣٦٨٠٠٢).

- **أمراض القلوب** - خمسة وثلاثون مرضًا من أمراض القلوب وطرق علاجها - مكتبة مكة - القاهرة (ت: ٠١٢٢٣٤٨٩٨٥٣).

- **التعليقات الجلية على العقيدة السفارينية** - للإمام السفاريني (٢ جزء)- دار الآثار - القاهرة (ت: ٠٢٢٥١٢٥١٨٤).

- **مجموعة بداية الهداية_ للمبتدئين** (أصول الإيمان - تفسير القرآن - فقه العبادات - الحديث) - دار ابن رجب - القاهرة (ت: ٠١٢٢٢٣٦٨٠٠٢).

- **الفتوحات الربانية في تفسير أسماء الله الحسنى** (٢ جزء) - دار ابن رجب - القاهرة (ت: ٠١٢٢٢٣٦٨٠٠٢).

- **عقائد الفرق الضالة وعقيدة الفرقة الناجية** - دار ابن رجب - القاهرة (ت: ٠١٢٢٢٣٦٨٠٠٢).

- **الدرر البهية** - بيان التوحيد الصحيح من الكتاب والسنة (رسالة دكتوراه)- مكتبة/ دار ابن الجوزي بالقاهرة (ت: ٠٢٢٥٠٦١٦٢١-٠٢٢٥٠٦١٦٢٠).

- **المحجة البيضاء** - في بيان أهمية التمسك بالسنة وبيان البدع وأنواعها - دار ابن الجوزي القاهرة (ت: ٠٢٢٥٠٦١٦٢١-٠٢٢٥٠٦١٦٢٠).

- **محمد رسول الله ﷺ كأنك تراه** - دار ابن الجوزي القاهرة (ت: ٠٢٢٥٠٦١٦٢١-٠٢٢٥٠٦١٦٢٠).

- **بيان قدر الصحابة عند الله العظيم وضلال الشيعة الخاسرين** - مكتبة آل ياسر- القاهرة (ت: ٠١١١٢٤٥٨٤٤٤).

- **النور الساطع للجيل الصاعد** " تفسير القرآن - عقيدة - فقه - حديث " - دار ابن رجب - القاهرة (ت: ٠١٢٢٢٣٦٨٠٠٢).

تنويه

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فهذه نسخة جديدة منقحة ومزيدة، وقد طبع الكتاب مرات عديدة، وكانت الطبعة الأولى عام ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، وقد وجد قبولًا كبيرًا من العامة، وطلبة العلم -ولله الحمد والمنة- ولذلك رأيت إضافة بعض الأشياء التي تثري الكتاب ليحصل للقارئ مزيد من الاستفادة.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن المصادر قد تكون من الكتب التي بالمكتبة الشاملة، وقد تكون من النسخ الورقية، لذلك أحيانًا نجد اختلافًا في أرقام صفحات الكتاب.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد،

فلا يخفي أن القلبَ يمرضُ بالذنوب والمعاصي كما يمرض البدن مع الفارق الكبير بينهما، فمريض البدن إذا صبر واحتسب كان ذلك له أجرًا وطهورًا من السيئات وربما رفع بهذا المرض درجات، وأدلة ذلك كثيرة في الكتاب والسنة.

* أما مريض القلب فعلى خطر عظيم، إن لم يتداركه الله تعالى برحمته وعفوه وإحسانه بأن يبصره بمرض قلبه وييسر له التوبة، وذلك إذا علم المولى عز وجل من العبد الصدق في طلب التوبة.

* ومكمن الخطر أن أمراض القلوب تفسد العمل وتحجب العبد عن العمل، ففساد العمل: يكون إما بالشبهات: كالبدع والنفاق العقدي والقنوط من رحمة الله... إلى غير ذلك من أمراض الشبهات، وإما بالشهوات كاتباع الهوى والعجب والكبر والغفلة ... وما أشبه ذلك.

* أما حجب العبد عن العمل: فلأنه من المعلوم أن الذي أُبتِلِيَ بمرض في بدنه لا يستطيع أن يبذل الجهد الذي يبذله من رُزق معافاة البدن، وكذلك مريض القلب لا يقوى على القيام بالطاعات التي يقوم بها سليم القلب وإن تيسرت له الأسباب التي تعينه على الطاعة، فتجده عنده

وقتًا ولا يذهب لدروس العلم أو لحفظ القرآن، فتمر الأيام والشهور، ولا ينظر في كتاب الله وقد يسهر الليل كله ولا يقوم لدقائق معدودات يناجي فيها ربه، والطامة الكبرى أن مريض القلب قد يتهاون في أداء الفروض من صلاة وصيام وزكاة، فقد يملك المال ولا يؤدي حق الله فيه من زكاة وصدقة، ومع توافر المال قد يكون معافي في بدنه ولا يحج ولا يعتمر ولا يسعى لنفع المسلمين بأي وجه من الوجوه، وما ذلك إلا لمرض قلبه.

* وإذا كان الأمر كذلك فإن البحث في أمراض القلوب من الأهمية بمكان فلو ملك العبد كنوز الأرض مع فساد القلب فلن تغني عنه من الله شيئًا قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء].

* وانطلاقًا مما تقدم، فقد عزمت- بحول الله وقوته وبعد استخارته- على عمل كتاب يحوي هذه الأمراض وطرق علاجها مع العلم بأن علماء السلف اعتنوا بالبحث في أمراض القلوب وقاموا بتدوينها ولكن في كتب متفرقة ليس من السهل على كل مسلم جمعها.

هذا، والله أسألُ أن يجعلَ هذا العملَ سببًا في صلاح قلبي، وقلوب عباده المؤمنين، ويدخلنا برحمته وفضله وجوده وكرمه في عباده الصالحين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أم تميم

عزة بنت محمد رشاد بن حسن

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

المرض الأول
الشرك الأكبر

الشرك في اللغة: الكفر، وقد أشرك فلان بالله فهو مشرك. وقوله تعالى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝٣٢﴾ [طه]، أي اجعله شريكي فيه(١).

وفي الاصطلاح: مرض خَبِيْثٌ من أمراضِ القلوبِ بل هو أخطر الأمراضِ التي تصيب القلب على الإطلاق وهو أكبرُ الكبائرِ، فليس بعد الكفر ذنب، فَمَن اعتقدَ بِقلبِه أنَّ مع الله إلهًا آخرَ أو أنَّ لله نِدًّا(٢) أو جَوَّزَ أن يُعبدَ مع الله غَيرُه من شجرٍ أو حجرٍ أو شمسٍ أو قمرٍ أو ملك أو اعتقدَ أنَّ أحدًا يملك له ضُرًّا أو نَفعًا أو حياةً أو نشورًا فقد أشرك شركًا أكبرَ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة]، «أي: نظراء وأشباها من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبون الله، وهم مثلكم، مخلوقون، مرزوقون مُدَبَّرون، لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا يَنفعونكم ولا يَضُرون، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أن الله ليس له شريكٌ، ولا نظيرٌ، لا في الخلق، والرزق، والتدبير، ولا في العبادة فكيف تعبدون معه آلهةً أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب، وأسفه السفه»(٣).

---

(١) انظر: الصحاح تاج اللغة للجوهري (٤/ ٥٩٣-٥٩٤)، ولسان العرب لابن منظور (١٠/ ٤٥٠).

(٢) الند: الشبيهُ، والشبيه: المثل، وأشبه الشيءُ الشيءَ: ماثله. انظر: لسان العرب لابن منظور (٥/ ٢٢).

(٣) ما بين القوسين من تفسير السعدي (١/ ٤٥).

وسواء أكان هذا الشريكُ المزعومُ نبيًّا مرسلاً أم ملكًا مقربًا أم شيخًا أم وليًّا من الأولياء- حيًّا كان أم ميتًا- فكل ذلك من الشرك الأكبر، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس].

والله عز وجل لا يغفر لمن مات على الشرك الأكبر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ﴾ [المائدة: ٧٢]، والآيات في ذلك كثيرة.

فمن أشرك بالله ثم مات مشركًا فهو كافرٌ من أصحابِ النار قَطعًا، كما دلَّت الآياتُ على ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [النساء]، وغيرها من الآيات.

أمَّا من تاب من الشرك قبل موته فإنَّ الله يتوبُ عليه لأنه هو التوابُ الرحيمُ سبحانه وتعالى وعز وجل قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أبي بَكرةَ أن رسول الله ﷺ قال: «**أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكبائرِ، ثَلاثًا**» قالُوا: بَلى يا

رسولَ الله! قال: «**الإشراكُ بالله وَعُقُوقُ الوَالديْنِ**- وَجَلَسَ وَكان مُتَّكِئًا فَقال- **أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ...**» [١] الشاهد أن رسول الله ﷺ أخبرنا بأن الشِّركَ الأكبر – وهو الكفر الأكبر- أكبر الكبائرِ، وقال ﷺ: «**اجْتَنبوا السّبْعَ المُوبِقَات**.. وَذَكَر مِنْهَا: **الشِّرك بالله**»[٢].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (١٨٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المرض الثاني
الرياء

الرِّيَاءُ في اللغة: وفُلَانٌ مُراءٍ وقومٌ مُراؤُونَ، والاسم الرِّياءُ. يُقَالُ: فَعَلَ ذلك رِياءً وسُمْعَةً. وَتَقُولُ مِنَ الرِّياء يُسْتَرْأَى فلانٌ، كما تَقُولُ يُسْتَحْمَقُ ويُسْتَعْقَلُ[١]؛ وهو مشتقٌ من الرؤية.

وفي الاصطلاح: الرِّيَاء ترك الإخلاص في العمل بمراعاة غير الله فيه[٢].

ومقصودُ المرائي طلبُ المنزلةِ في قلوب العباد، والسعي وراءَ لذة المحمدة، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما عند الناسِ.

قال ابن حجر الهيتمي: وحدُّ الرياء المذموم إرادةُ العامل بعبادته غيرَ وجهِ الله تعالى كأن يَقصدَ اطلاعَ الناس على عبادتِه وكمالِه حتى يحصُلَ له منهم نحوُ مالٍ أو جاهٍ أو ثناءٍ[٣].

فمن تصدَّق يُرائي، فقد أشرك[٤] - شركًا أصغر، وهو الرياء-، ومن صلى، أو اعتمر، أو حج، أو عمل عملًا يريد أن يراه الناسُ، فقد وقع في الرياء.

واعلم أنَّ الرِّيَاءَ محبطٌ للعملِ وسببٌ لغضب الملكِ الجبارِ الكبير المتعالِ، وهو قسمان:

---

(١) لسان العرب لابن منظور (١٤/ ٤٤٥).
(٢) التعريفات للجرجاني (ص: ١١٩).
(٣) الزواجر عن ارتكاب الكبائر لابن حجر الهيتمي (١/ ٦٩).
(٤) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (ص: ٣٥)، بتصرف.

القسم الأول: الرِّيَاء المحض:

هو ألَّا يكون مراد المرائِي الثواب أصلاً، لأنه منافق قصد الرياء للناس، فيصَلِيَ ليُقال إنَّه مِن المصلين ولو خَلا بنفسِهِ لم يصلِّ وكذا يتصدقُ ليُقال جوادٌ ويجاهد ليُقال شجاعٌ ويحج ليُقال حاجٌ، وهكذا فهو يلتمسُ من ذلك إطلاقَ الألسنِ بالثناء والمدح عليه، فمن كانت تلك حاله فهذا شَرُّ النَّاسِ وأول من يحكم عليه بالنَّار[1] قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ [الماعون]، وقال جل جلاله: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان].

قال الذهبِي: الأعمالُ التي عملوها لغير وجه الله تعالى أبطلنَا ثوابَهَا وجعلناها كالهباء المنثورِ وهو الغبارُ الذي يُرى في شعاعِ الشمسِ.

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قال: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قال: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قال: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقال: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قال: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قال: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قال: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقال: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقال: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قال: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قال: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قال: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقال: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»، أخرجه مسلم (١٩٠٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال بعض الحكماء: مَثَلُ الذي يعمل للرياء والسمعة كمثل الذي يملأُ كيسَهُ حَصى ثم يدخلُ السوقَ ليشتري به فإذا فتحه قُدَّامَ البائعِ فإذا هو حَصَى وَضرِبَ بِه وجهه ولا منفعةَ له في كيسه سوى مقالةِ الناس له: ما أملأَ كيسه ولا يعطي بِه شيئًا فكذلك الذي يعملُ للرياء والسمعة فليس له من عمله سوى مقالة الناسِ ولا ثوابَ له في الآخرة[١].

وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ الله بِهِ وَمَنْ رَاءَى رَاءى الله بِهِ**»[٢]، وقال ﷺ: «**رُبَّ صَائم لَيْسَ له مِنْ صَوْمِهِ إِلَّا الجوعُ والعطشُ وَرُبَّ قَائِم لَيْسَ له مِن قِيامِهِ إِلَّا السَّهَرُ**»[٣].

القسم الثاني من الرياء: رياء الشرك:

وهو أن يكون مراده من العملِ الثواب وأيضًا مدح الناسِ له على هذا العملِ وثناءهم عليه، كمن يصلي بالناسِ يبتغي الأجر على إمامته المصلين وأيضًا يريد الرياسةَ أو يريد أن يُقال: ما أجمل صوته ما أخشعه عند تلاوة القرآن وما أشبه ذلك من الآفات، أو كالذي يتصدقَ يريدُ أجرَ وثوابَ الصدقة من الله ولكن يطمعُ في مدح النَّاس إيَّاهُ لجودِهِ، وقس على هذا جميعَ الأعمالِ الظاهرةِ والباطنة، يعملُ العملَ لله يَرجو ثوابَ الله، ويريدُ المدحَ

---

(١) الكبائر للإمام الذهبي (ص: ١٧).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٦)، من حديث جندب بن سفيان البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) صحيح: أخرجه ابن ماجه (١٦٩٠)، والدارمي (٢٧٦٢)، وأحمد (٨٨٥٦، ٩٦٨٥)، وابن خزيمة في صحيحه (١٩٩٧)، وغيرهم، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٩٠).

من النَّاس أو أيَّ غرضٍ من الأغراض، فهذا محبطٌ عملَه.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف].

ومعلوم عند علماء الأصول: «أن النكرة في سياق النَّهي تُفيدُ العمومَ»[(١)]، فقوله سبحانه: ﴿أَحَدًۢا﴾ نكرةٌ في سياق النَّهي فتعمُّ كلَّ شيء، وهذا العمومُ يتناولُ الأنبياءَ والملائكةَ والصالحينَ والأولياءَ وغيرَهُم، فلا يجوزُ لأحدٍ أن يُشركَ معَ الله أحدًا في أيِّ عبادةٍ.

وقال ﷺ: «**قالَ الله تباركَ وتعالى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَن الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عملًا أَشْرَكَ فيهِ مَعي غَيري تَركْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ: «**إِيَّاكُم وَالشِّرْكَ الأَصْغَرَ**» **قالوا: يَا رَسُول الله وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ؟ قال: الرِّيَاءُ، يَقُولُ الله تعالى يَوْمَ تُجازَي العِبادُ بِأَعْمَالِهم: اذْهبُوا إلى الَّذِينَ كُنْتُم تراءونَهُم بِأَعْمَالِكُمْ في الدنيا فَانظروا هَل تَجِدُونَ عندهُم جَزَاءً**[(٣)].

---

(١) انظر: تشنيف المسامع بجمع الجوامع للسبكي (١/ ٤٣١)، والغيث الهامع شرح جمع الجوامع لأبي زرعة العراقي (ص: ١٦٦)، والفصول في الأصول للرازي (١/ ١١٣).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) إسناده حسن: أخرجه أحمد (٢٣٦٣٠)، والبيهقي في الشعب (٦٤١٢)، والبغوي في شرح السنة (٤١٣٥)، وقال الألباني في الصحيحة (٩٥١): وهذا إسناده جيد. انتهى، وحسَّن إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند (٢٣٦٣٠).

قال الفضيل بن عياض: في قوله تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، قال: أخلصه وأصوبه قيل: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟، قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقْبَلْ وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقْبَلْ حتى يكون خالصًا صوابًا والخالصُ أن يكون لله والصوابُ أن يكونَ على السنة فمن عَمِلَ لغير الله - كأهل الرياء - لم يُقْبَلْ منه ذلك[١].

قال ابن تيمية: الرياء هو من جنس الشرك أو مبدأ الشرك، والشركُ أعظمُ الفساد[٢]، والشركُ شركانِ: شركٌ في التوحيد يَنْقِلْ عن الملة، وشركٌ في العمل لا يَنْقِلْ عن الملة وهو الرياء[٣].

---

(١) انظر: الإيمان الأوسط لابن تيمية (ص: ٤٤).
(٢) انظر: الفتاوى الكبرى لابن تيمية (١/ ٩٤).
(٣) انظر: الإيمان لابن تيمية (ص: ٢٥٧).

دُررٌ لابن الجوزيّ في كَشفِ الرّيَاء

يقول: قد يكون الواعظُ صادقًا، قاصدًا للنصيحة إلا أنَّ منهم من شرب الرئاسة في قلبِه مع الزمان فيحبُّ أن يُعَظَّمَ.

وعلامته: أنه إذا ظهرَ واعظٌ يتوبُ عنه أو يعينه على الخلق كره ذلك ولو صحَّ قصدُهُ لم يكرَه أن يعينَه على خلائقِ الخلقِ.

وقد لبَّسَ إبليسُ على أقوامٍ من المحكمين في العلمِ والعملِ من جهةٍ أخرى، فحسن لهم الكبرَ بالعلمِ، والحسدِ للنظيرِ، والرياء لطلب الرياسةِ، فتارةً يُريهم، أن هذا كالحق الواجبِ لهم وتارة يقوي حب ذلك عندهم فلا يتركونه مع علمهم بِأنه خطأ.

وعلاجُ هذا لمن وفق: إدمانُ النظرِ في إثمِ الكبرِ والحسدِ والرياء، وإعلامُ النفسِ أن العلمَ لا يدفع شرَّ هذه المكتسبات بل يضاعفُ عذابَها لتضاعف الحجة بها، ومن نظر في سيرِ السَّلفِ من العلماءِ العاملينَ استقلَّ نفسَهُ فلم يتكبر، ومن عرفَ اللهَ لم يراءِ، ومن لاحظ جريانَ أقدارِه على مقتضى إرادَتِه لم يحسدْ.

ومن ذلك من يظهرُ من التواجدِ والتخاشعِ: زِيَادةً على ما في قَلبِه وكثرةِ الجمعِ توجبُ زيادةَ تَعلمٍ، فتسمح النفس بفضل بكاء وخشوع، فمن كان منهم كَاذبًا فقد خسرَ الآخرةَ ومن كان صادقًا لم يسلم صدقُه من رياء يخالِطُهُ.

أما الرياء فلا عذرَ فيه لأحدٍ: ولا يصلحُ أن يجعلَ طريقًا لدعايةِ

النَّاسِ، وقد كان أيوبُ السختياني إذا حدثَ بحديثٍ فرقَ ومسحَ وجهَهُ وقال: ما أشد الزُّكَام[١]!! وبعد هذا فالأعمالُ بالنياتِ والناقدُ بصيرٌ، وكم من ساكتٍ من غيبةِ المسلمينَ إذا اُغتيبوا عنده فرحَ قلبُهُ وهو آثمٌ بِذلك.

وقد لبَّسَ إبليسُ على الكاملينَ في العلومِ، فيسهرون ليلهم ويدأبون نهارَهُم في تصانيف العلومِ ويريهم إبليسُ أنَّ المقصود نشر الدينِ، ويكون مقصودهم الباطن انتشار الذكر وعلو الصيت، والرياسةِ.

وينكشفُ هذا التلبيس: بأنه لو انتفع بمصنفاته النَّاسُ من غير تردد إليه أو قرئت على نظيره في العلمِ فِرحَ بِذلك، إن كان مراده نشر العلمِ.

وقد قال بعض السَّلفِ: ما من علمٍ علمتُه إلا حببت أن يستفيدَه النَّاسُ من غير أن يُنسبَ إليَّ.

ومنهم من يفرحُ بكثرةِ الأتباع: ويُلبَّسُ عليه بأن هذا الفرحَ لكثرة طلابِ العلمِ، وإِنَّمَا مرادُه كثرةُ الأصحابِ واستطارةُ الذكرِ.

ومن ذلك العُجْبُ بكلماتِهم وعلمِهم: وينكشفُ هذا التلبيسُ بأَنَّه لو انقطعَ بعضُهم إلى غيرِه ممن هو أعلمُ منه ثَقُلَ ذلك عليه، وما هذه صفةُ المخلصِ في التعليم، لأنَّ مَثَلَ المخلصِ مثلُ الأطباءِ الذين يُداوون المَرضَى

---

(١) على المسلم الفطن أن يسعى لتحقيقِ الإخلاصِ ودفعِ الرِّيَاء ما استطاع إلى ذلك سبيلاً شرط أن يكون ذلك بالضوابطِ الشَّرْعيَّةِ، فلا يجوز أن يقترفَ معصيةً فرارًا من أخرى. فلا يجوزُ الكذب فرارًا من الرِّيَاءِ أو من غيره، أما السختياني: فقد عرض بقوله: ما أشد الزكام ولم يكذب لأن البكاء يُسبب الزكام، والله أعلم.

لله سبحانه وتعالى، فإذا شُفيَ بعضُ المرضى على يدِ طبيب فرحَ الآخرُ، وقَد ذَكرنا آنفًا حديثَ ابن أبي ليلى، ونعيده بإسنادٍ آخر عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: «أدركتُ عشرينَ ومائةً من أصحابِ النبي ﷺ من الأنصارِ ما منهم رجلٌ يسألُ عن شيءٍ إلاَّ وَدَّ أن أخَاهُ كَفَاهُ، ولا يحدثُ بحديثٍ إلا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ».

وإِنَّمَا كانت هذه سَجِيةُ السَّلفِ لخشيتهم لله عز وجل وخوفِهِم منه ومن نظرَ في سيرتِهم تأدَّبَ[1].

ما سبب الوقوع في الرياء؟

الوقوعُ في الرِّيَاءِ له أسبابٌ كثيرةٌ أهمُّها ضعفُ البصيرةِ بأسماءِ الله تعالى وصفاتِه، إذ غاب عن العبدِ معرفةُ أنَّ الله تعالى عالمُ الغيبِ والشهادة وأنَّهُ يعلمُ السِّرَّ وأخفَى وأنَّه سبحانه يعلمُ ما كان وما هو كائن ومَا سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، إذ جهلِ العبدُ أنَّ الله سبحانه بيدِه خزائنُ كُلِّ شيءٍ ، فلا بدَّ أن يقع في الرياء، لأنَّ المرائي يَبتغِي غرضًا من الأغراضِ، كطلبِ الجاهِ- وهو طلبِ المنزلةِ في قلوبِ العبادِ- أو حبِ الرياسةِ أو حبِ المدح والتعظيم أو الهروبِ من المذمةِ كالذي يتركُ السؤال خشيةَ أن يُقال: جاهلٌ أو يُفتي بغيرِ علمٍ حتى لا يُقَال: كيف لا يعرفُ مثلَ هذه المسألةِ وما أشبه ذلك من الحرصِ على طلبِ المحمدةِ أو الفرارِ من المذمة وكل ذلك من الرِّيَاءِ، ولو تأمَّلَ قولَه تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا

(١) انظر تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص: ١٢٨)، وما بعدها.

عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]، ما لجأَ لغيرِ الله لأن هذه الآيةَ «متضمنةٌ لكنزٍ من الكنوزِ وهو أنَّ كُلَّ شيءٍ لا يطلبُ إلا ممن عنده خزائنه، ومن مفاتيح تلك الخزائن بيديه، وإن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده، ولا يقدر عليه»(١).

لو علمَ العبدُ أنَّ اللهَ مالكُ الملكِ يُؤتي ملكَه من يشاءُ وينزعُ ملكَه ممن يشاءُ، يرفعُ أقوامًا ويضعُ آخرينَ، وأنَّ قلوبَ العبادِ بين إصبعين من أصابعِ الرَّحمن يُقلبها كيف يشاءُ، لو أيقن أنَّ البشرَ لا يملكون لأنفهسم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا وأنَّ ما فوقَ الترابِ ترابٌ، مع مداومة مطالعة أسماء وصفاته كان ذلك سببًا- بإذن الله- في تبدد ظلمة الرياء من قلبه وإشراق نور الإخلاص والله المستعانُ.

فائدةٌ:

قد يتخلص العبدُ من حب الدنيا وزينتِهَا فتجده صوَّامًا قوَّامًا يقرأُ القرآن ويسعى إلى مجالسِ الذكرِ لا يلتفتُ قلبُه إلى السيارات ولا الفيلات ولا ما أشبه ذلك ولا يسعى لاقتنائِها، فتراه عليه علاماتُ الزهد في مظهرِه وفي مأكِله وملبسِه ومسكنِه، ومع ذلك تجده أبعدَ النَّاسِ عن الله، لماذا؟

لأنه زَهِدَ في الظَّاهرِ ولم يزهد في حظوظِ النفس، من حبِّ المدحِ والثناءِ، وحبِ الجاهِ والرياسةِ، وكثرةِ الاتباعِ، إلى غير ذلك من أمراضِ

(١) ما بين القوسين من التفسير القيم لابن القيم (ص: ٣٤٨).

القلوب، فينخدع بزهدِ الظَّاهرِ فيظن أنه مخلصٌ وهو ليس كذلك، فأعظمُ أنواعِ الزهدِ هو الزهدُ في الحظوظِ، وإلا فنبيُّ الله سليمانُ كان عندهُ ملكٌ وهو من أزهد النَّاسِ، والصحابةُ الكرامُ كان منهم الأثرياءُ وهم أفضلُ النَّاسِ بعد النبي ﷺ، والمخلصُ من أصلحَ سريرتَه قبل علانيتِه.. فتأمل.

ما حكمُ العبادةِ إذا خالطَهَا الرّياءُ؟

العملُ لغير الله مردودٌ غيرُ مقبولٍ، والعمل لله وحده مقبولٌ؛ فبقي قسمٌ آخر وهو أن يعمل العملَ لله ولغيره، فلا يكون لله محضًا ولا للناس محضًا، فما حكم هذا القسم؟ هل يبطلُ العملُ كلُّه أم يبطل ما كان لغير الله ويصحُّ ما كان لله؟ قيل: هذا القسم تحته أنواعٌ ثلاثة؛ أحدها: أن يكون الباعثُ الأولُ على العمل هو الإخلاصُ، ثم يعرض له الرياءُ وإرادةُ غير الله في أثنائه، فهذا المعولُ فيه على الباعث الأول ما لم يفسخه بإرادة جازمة لغير الله فيكون حكمه حكم قطع النية في أثناء العبادة وفسخها، أعني قطع ترك استصحاب حكمها.

الثاني: عكسُ هذا، وهو أن يكون الباعثُ الأولُ لغير الله، ثم يعرض له قلبُ النية لله، فهذا لا يحتسب له بما مضى من العمل، ويحتسب له من حين قلبِ نيته؛ ثم إن كانت العبادةُ لا يصحُّ آخرُها إلا بصحة أولها وجبت الإعادةُ، كالصلاة، وإلا لم تجب كمن أحرمَ لغير الله ثم قلب نيتَه لله عند الوقوف والطواف.

الثالثُ: أن يبتدئَها مُريدا بها اللهَ والناسَ، فيريد أداءَ فرضِه والجزاءَ والشكورَ من الناس، وهذا كمن يصلي بالأجرة، فهو لو لم يأخذ الأجرةَ، صلى، ولكنه يصلي لله وللأجرة، وكمن يحجُّ ليسقط الفرضَ عنه ويقال فلانٌ حجَّ، أو يعطي الزكاةَ كذلك؛ فهذا لا يقبل منه العملُ.

وإن كانت النيةُ شرطًا في سقوط الفرض وجبت عليه الإعادةُ، فإن حقيقةَ الإخلاصِ التي هي شرطٌ في صحة العمل والثواب عليه لم توجد، والحكمُ المعلقُ بالشرط عدمٌ عند عدمِه، فإن الإخلاصَ هو تجريدُ القصد طاعةً للمعبود، ولم يؤمر إلا بهذا.

وإذا كان هذا هو المأمور به فلم يأت به بقي في عهدة الأمر؛ وقد دلت السنةُ الصريحةُ على ذلك[1].

أما إذا بدأ العمل خالصًا، ثم طرأ عليه الرياء أثناء العمل، لكنه دافعه، ولم يسكن إليه، ولم يسترسل في الرياء لأنه يكرهه، فهذا لا يؤثر على عمله، لقول رسول الله ﷺ: «**إن اللهَ تجاوَزَ عن أُمَّتِي ما حَدَّثَتْ بِه أَنفُسَهَا ما لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تتكلَّمْ**»[2].

---

(١) وساق ابن القيم الحديث المتقدم: أنا أغنى الشركاء ...، وقال: هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]. ينظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (٢/ ١٢٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الخلاصة أن للرياء ثلاثةَ أوجهٍ:

الأولُ: أن يكون الباعث على العبادة مراءاة النَّاسِ من الأصلِ، كمن قامَ يُصلي من أجلِ مراءةِ النَّاسِ ولم يقصد وجهَ الله فهذا شركٌ، والعبادةُ باطلةٌ.

الثاني: أن يكون مُشاركًا للعبادةِ في أثنائِها، بمعنى أن يكون الحامل له في أول أمره الإخلاص لله ثم يطرأ الرِّيَاءُ في أثناء العبادة فإن كانت العبادةُ لا ينبني آخرها على أوَّلِها، فَأوَّلُها صحيحٌ بكلِ حالٍ والباطلُ آخِرُهَا، مثال ذلك: رَجلٌ عندهُ مائةُ ريالٍ قد أعدَّهَا للصدقة فتصدق بخمسينَ مخلصًا وراءى في الخمسين الباقيةِ فالأولى حكمُهَا صحيحٌ والثانيةُ باطلةٌ.

أمَّا إذا كانت العبادةُ ينبني آخرُهَا على أوَّلِها فهي على حالين:

أ- أن يدافع الرِّيَاء ولا يسكن إليه، بل يعرض عنه ويكرهه فإنَّه لا يؤثرُ عليه شَيئًا لقول النَّبِيِّ ﷺ: «**إن اللهَ تجَاوَزَ عَن أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِه أَنفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تتكلَّمْ**»(١).

مثالُ ذلك: رجلُ قامَ يُصلي ركعتين مخلصًا لله وفي الركعة الثانيةِ أحسَّ بالرِّيَاء فصار يدافعه، فإن ذلك لا يضرُّه ولا يؤثُر على صلاته شيئًا.

ب- أن يطمئنَ إلى هذا الرِّيَاءِ ولا يدافعه فحينئذٍ تبطل جميعُ العبادة لأنَّ آخرها مبني على أولها ومرتبطٌ بِهِ، مثالُ ذلك: رجلٌ قام يُصلي ركعتين

(١) متفق عليه، تقدم تخريجه آنفًا.

مخلصًا لله وفي الركعة الثانية طرأ عليه الرِّيَاءُ لإحساسه بشخصٍ ينظر إليه فاطمأنَّ لذلك ونزع إليه فتبطُل صلاتُه كلُّهَا لارتباط بعضها ببعضٍ[١].

ما يُظَنُّ أَنَّهُ رياءٌ وليس كذلك:

صورةُ ذلك أن يعملَ العملَ لله خالصًا ثم ألقى الله له الثناءَ الحسنَ في قلوبِ المؤمنينَ بذلك، ففرحَ بفضلِ الله ورحمتِهِ واستبشرَ بِذلك، لم يضرّه، وفي هذا المعنى جاء حديثُ أبي ذرٍّ عن النبي ﷺ: أَنَّهُ سُئِلَ عن الرجلِ يعملُ العملَ من الخيرِ يحمده النَّاسُ عليه، فقال: «**تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ**»[٢][٣].

قال العلماء: معناه هذه البشرى المعجلة له بالخيرِ وهي دليلٌ على رضا الله تعالى عنه ومحبتِه له فيحببه إلى الخلقِ كما سبق الحديثُ[٤]، ثم يوضع له القبول في الأرض، هذا كلُّه إذا حمده النَّاسُ من غير تَعرض منه لحمدهم وإلا فالتعرُّض مذمومٌ[٥].

---

(١) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٤٩).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٤٢).

(٣) انظر: فتح المجيد (٤٠٦).

(٤) يشير إلى حديثِ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسولَ الله ﷺ: قال: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَال: إِنِّي أُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ..» الحديث أخرجه مسلم (٢٦٣٧).

(٥) مسلم بشرح النووي (٨/ ٤٣٩).

المرض الثالث
الأنفة من المسكنة لله تعالى

الأنفة في اللغة: يقال: أنف فلان في أسلوبه إذا كان متكبرًا، والأنف: الحمية[(١)].

وفي الاصطلاح: تطلق على الشخص الذي يلجأُ إلى الخلقِ لقضاء حوائجه وقد يتذللُ ويتودَّدُ إليهم لحصولِ مقصوده ثم تراه يأنف من التذللِ والمسكنةِ لله، هذا بلا شك قلبٌ مريضٌ؛ لأنَّ شرط صحة العبادة أن تكون قائمةً على محبة الله تعالى والذلِّ له وخوفه ورجائه، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾ [الإسراء]، وقال سبحانه وتعالى عن أنبيائه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران].

وقد أجمعَ العقلاءُ في كل زمانٍ ومكانٍ أنَّ التوفيقَ ألا يَكِلكَ الله إلى نفسك وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك فالعبدُ الذي أهمل الذلَّ والمسكنة وإظهار الافتقارِ إلى الله تعالى ودعاءه بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى قد أغلق على نفسه بابًا من أعظمِ أبوابِ الخيرِ، فالمعونةُ من الملك تنزلُ

(١) انظر: جمهرة اللغة لابن دريد الأزدي (٢/ ١١٩٤)، والمحيط في اللغة للصاحب بن عباد (٢/ ٤٧١).

على العبد على قدر ذُلِّهِ وانكسارِهِ وتودُّده ورغبته ورهبته.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، فقد تظاهرت الرواياتُ بأنَّ الملائكةَ حضرت يومَ بدرٍ وقاتَلت وكانَ النصرُ للمؤمنين، ومن أهمِ أسبابِ النصرِ استغاثةُ النَّبيِّ ربَّهُ[١] ودعاؤُه وذلُّه لله كما جاء في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه وفيه: «**أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما كان يومُ بدرٍ نظرَ رسولُ الله ﷺ إلى المشركينَ وهم ألفٌ وأصحابُه ثلاثمائةٌ وتسعةَ عشرَ رجلاً فاستقبلَ النَّبيُّ ﷺ القبلةَ ثم مدَّ يديه فجعل يهتفُ بربِّه: «اللهمَّ أنجِزْ لي مَا وَعَدْتَني اللهمَّ آتِني مَا وَعَدْتَني اللهمَّ إن تُهْلِكْ هذه الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ لَا تُعْبَدُ في الْأَرْضِ...**»[٢].

---

(١) قال قتادة: كان يوم بدر أمدهم الله بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ [الأنفال]. ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝١٢٤﴾ إلى قوله: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥﴾ [آل عمران]. تفسير القرطبي (٤/ ٢٠٥).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٦٣).

المرض الرابع
حبُّ التفاخر والمباهاة بالدنيا

الفخر في اللغة: أن يعد الرجل قديمه ... قال أبو زيد: يُقَال: فخرت الرجل على صَاحبه فأنا أفخره فخرًا، وذلك إِذا فاخره رجل ففضلته عليه، وفخر الرجل بآبائه يفخر فخرًا[(١)].

وفي الاصطلاح: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [النساء]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾ [لقمان].

قال مجاهدٌ: يعني يعدُّ ما أُعطيَ وهو لا يشكرُ اللهَ تعالى ويفخر على النَّاسِ بِما أعطَاه الله من نعمِهِ وهو قليلُ الشُّكرِ[(٢)].

قال رسول الله ﷺ: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لاَ يَتْرُكُونهُنَّ: الفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ والطَّعْنُ فِي الأَنسَابِ والاستسقاءُ بالنّجومِ وَالنِّيَاحَةُ على الميتِ**»[(٣)].

الفخر والمباهاة بالدنيا من أمورِ الجاهلية المذمومة، تجد صاحبَ القلبِ المريضِ يبذل الجهد، ويُضَيِّعُ الوقت، وينفق المال الكثير من أجلِ

---

(١) انظر: جمهرة اللغة لابن دريد الأزدي (١/ ٥٨٩)، وغريب الحديث للخطابي (٢/ ٢٥٦)، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري الفارابي (١/ ٤٢٠).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٤٧٣).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨٥٠)، ومسلم (٩٣٤)، واللفظ له، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

اقتناء السيارات الفارهة، والملابسِ الفاخرة، والمفروشات الغالية.. إلى غيرِ ذلك من متاع الدنيا، فيدخل على القلبِ العُجْب والكبر، ويظهر على البدن الخيلاء، وينطقُ اللسانُ بالكلمات الدالة على الفخرِ، ويزدادُ المرضُ كلما كانت النفسُ تطلب الرفعة، وإلا فمن النَّاس من يملك هذه الأشياءَ ولا تؤثرُ في قلبِه لأنه مشتغلٌ بالله فتبقي الدنيا في يده لا تسكن قلبَه، وعلامته إذا فقدَ شيئًا من هذه الأشياءَ لا يحزن حزنًا يجعله يسخط على أقدارِ الله، ولا يفرحُ فرحًا يجعله يَبغي ويَطغي ويعصي الله بِما أنعم عليه من نِعَم، لأنَّ أولي الأبصار كما قال ابن القيّم: «لا تغرّهم دنيا لأنهم علموا أنها لعبٌ تلعبُ بها الأبدانُ ولهوٌ تلهوُ بها النفوسُ فتركوها لأهلها»[1]، تدبروا قول الله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾ [الحديد: ٢٠]، فلو باشرَ قلبُ العبدِ حقيقةَ الدنيا ومالها ومصيرَها لأبغضَتْها نفسُه ولآثَرت عليها الآخرةَ التي هي خيرٌ وأبقى.

(١) ما بين القوسين من بدائع التفسير (٤/ ٣٨٨).

المرض الخامس
الخيانة

الخيانة في اللغة: كما في الحديث: «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ»، أي: يُضمرُ في نفسه غيرَ ما يُظْهِرُه، فإذا كفَّ لسانَه وأَوْمَأَ بعينه فقد خانَ، وإذا كان ظهورُ تلك الحالة من قبل العين سُمِيَتْ خائنةَ الأعين، ومنه قوله تعالى ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾[١].

وفي الاصطلاح: الخائن الذي لا يخفى له طمعٌ، -وإن دقَّ-، إلا خانَه، لا يقدرُ على خيانة -ولو كانت حقيرةً- إلا بادرَ إليها واغتنمها[٢].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ [الأنفال].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الأماناتُ: الأعمالُ التي ائتمنَ الله عليها العباد يعني الفرائضَ يقول: لا تنقضُوهَا.

قال الكلبيُّ: أما خيانةُ الله ورسوله فمعصيتهما، وأما خيانةُ الأمانة: فكلُّ واحدٍ مؤتمنٌ على ما افترضه الله عليه إن شاءَ خانها وإن شاء أدَّاها لا يَطَّلِعُ عليه أحدٌ إلا الله تعالى:

وقوله: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أنَّها أمانةٌ من غير شبهةٍ.

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾ [يوسف]، أي لا

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٨٩).
(٢) انظر: مجموع الرسائل لابن رجب (٤/ ٣٨٣).

يرشد كيد من خانَ أمانَتَه يعني أنه يفتضحُ في العاقبة بحرمانِ الهدايةِ.

وفي الصحيحين أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «**آيَةُ المنافِقِ ثَلاثٌ إذا حَدَّثَ كذبَ وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ وإذا اؤتمِنَ خَانَ**»(١).

وقال ﷺ: «**إِيَّاكُم وَالخِيَانَةَ فَإِنَّهَا بِئْسَت البِطَانَةُ**»(٢).

والخيانةُ قبيحةٌ في كلِّ شيءٍ وبعضُها شرٌّ من بعض وليس من خانك في فلسٍ كمن خانك في أهلك ومالك وارتكب العظائم (٣). انتهى.

وليس من خان زوجتَه بالنظرِ إلى النساء كمن خان زوجتَه بارتكاب الفاحشة، وليست من خانت زوجها بإفشاء سرِّه أو إدخال الرجال إلى بيته وهو غائب كمن خانت زوجها في إخراج بعض الطَّعام والشَّراب.

ومن صورِ الخيانة أكلُ أموال النَّاس بالباطلِ، وإفشاءُ سرِّ الصديق، ومنها ضياعُ العبادات، من صلاةٍ، وصومٍ، وحجٍ، وزكاةٍ، وضياعُ الحقوق، كحقِّ الأرحام، فيقطع رحمه، أو يعقّ الوالدين فلا يبرهما ، وقس ما ذكرت على ما لم أذكر، مع هذا القلب لا يتأثر بل تجده محبًّا للخيانة ما ذلك إلا لأَنَّهُ مريضٌ.

قال ابن رجب في معرض كلامه على الخيانة: ويدخل في ذلك التطفيفُ في المكيال والميزان وكذلك الخيانةُ في الأماناتِ القليلةِ كالودائع وأموال اليتامى وغير ذلك، وهو خصلةٌ من خصال النفاق وربما يدخل

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) حسن: أخرجه أبو داود (١٥٤٧)، والنسائي (٢٦٣)، وابن حبان (٢٤٤٤)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسَّنه الألباني في صحيح أبي داود (١٥٤٧).

(٣) انظر: الكبائر للذهبي (ص: ٢٠٢) وما بعدها باختصار.

الخيانة من خان الله ورسوله في ارتكاب المحارم سرًّا مع إظهار اجتنابها قال بعض السلف: كنا نتحدث أن صاحب النار من لا تمنعه خشيةُ الله من شئ خَفِيَ له[١].

تنبيه:

قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾ [التحريم].

خيانةُ امرأة نوحٍ وامرأة لوطٍ كانت في الإيمان فلم يوافقاهما على الإيمان فأبشع الخيانات الخيانةُ في العقيدة.

قال ابن كثيرٍ: ليس المراد بقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في فاحشةٍ بل في الدينِ فإنَّ نساءَ الأنبياء معصوماتٌ عن الوقوعِ في الفاحشة لحرمة الأنبياء.

عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في هذه الآية: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال: ما زنتا، أما خيانةُ امرأةِ نوحٍ فكانت تخبر أنَّهُ مجنونٌ، وأما خيانةُ امرأة لوط فكانت تدلُ قومها على أضيافه.

قال عدد من أهل العلمِ: كانت خيانتهما أنهما كانتا على عورتيهما، فكانت امرأةُ نوحٍ تطلع على سرِّ نوحٍ، فإذا آمن مع نوحٍ أحدٌ أخبرت الجبابرة من قومِ نوحٍ به، وأمَّا امرأةُ لوط فكانت إذا أضاف لوطٌ أحدًا أخبرت به أهل المدينة ممن يعملُ السوء[٢].

---

(١) انظر: مجموع الرسائل لابن رجب (٤/ ٣٨٤)، والتخويف من النار (ص: ٢٠٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٨٢).

المرض السادس
الحسد

الحسد في اللغة: حسد حاسدك، بِفَتْح الْحَاء، أَي لَا أنفك حسودا ولا زلت محسودا[١].

وفي الاصطلاح: هو البغضُ والكراهةُ لما يراه من حُسنِ حالِ المحسودِ وهو نوعان:

أحدُهما: كراهيةٌ للنعمة عليه مُطلقًا، فهذا هو الحسدُ المذمومُ وإذا أبغض ذلك فإنه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه فيكون ذلك مرضًا في قلبِه ويلتذ بزوال النِّعمة عنه وإن لم يحصل له نفع بزوالها، لكن نفعه زوال الألم الذي كان في نفسه.

الثاني: أن يَكره فضل ذلك الشخصِ عليه فيحب أن يكون مثله أو أفضل منه، فهذا حسدٌ وهو الذي سمَّوه الغبطةَ وقد سمَّاه النَّبيُّ ﷺ حسدًا في الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «**لاَ حَسَدَ إلا في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ الله مَالاً فَسُلِّطَ على هَلَكَتِهِ في الحقِّ وَرَجُلٌ آتاهُ الله الحِكْمَةَ فهو يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**»[٢] فهذا الحسدُ الذي نهى عنه النَّبيُّ ﷺ إلا في موضعين هو الذي سمَّاه أولئك الغبطة وهو أن يحبَّ مثل حال الغير ويَكرَه أن يُفَضَّلَ عليه.

---

(١) انظر: شرح درة الغواص في أوهام الخواص لأحمد بن محمد الخفاجي (ص: ٥٠٧).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦).

فإن قيل: إذًا لمَ سمَّي حسدًا وإنَّما أحب أن ينعم الله عليه؟ قيل: مبدأُ هذا الحبِّ هو نظرُه إلى إنعامه على الغير وكراهتُه أن يتفضل عليه ولولا وجودُ ذلك الغير لم يحبَّ ذلك، فلما كان مبدأُ ذلك كراهتَه أن يتفضل عليه الغيرُ كان حسدًا... أما من أحب أن يُنعمَ اللهُ عليه مع عدم التفاته إلى أحوال النَّاس، فهذا ليس عنده من الحسد شيءٌ، ولهذا يُبتَلى غالبُ النَّاسِ بهذا القسمِ الثاني وقد تسمى المنافسة: فيتنافس الاثنان في الأمرِ المحبوبِ المطلوبِ كلاهما يطلبُ أن يأخذه وذلك لكراهية أحدهما أن يتفضل عليه الآخرُ كما يكره المستبقان كل منهما أن يسبقه الآخرُ، والتنافسُ ليس مذمومًا مُطلقًا بل هو محمودٌ في الخيرِ قال تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين].

والحسدُ في الأصل إنَّما يقع لما يحصلُ للغير من السؤدد والرياسة، وإلا فالعاملُ لا يُحْسَدُ في العادة ولو كان تنعُّمُه بالأكلِ والشربِ والنكاح أكثر من غيره، بخلاف هذين النوعين فإنَّهما يُحسدَان كثيرًا، ولهذا يوجدُ بين أهلِ العلمِ الذين لهم أتباعٌ من الحسد ما لا يوجد فيمن ليس كذلك، وكذلك فيمن له أتباعٌ بسببِ إنفاق ماله.

هذا عمرُ بن الخطابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ نافس أبَا بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في الإنفاقِ كما ثبت في الحديثِ الصحيح عن عمرَ بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَال: أمرَنَا رسُولُ الله ﷺ أن نتصدقَ فوافق ذلك مالًا عندي فقلت: اليوم أسبقُ أبَا بكرٍ إن سبقتُه يَومًا، فجئت بنصف مالي فقال رسول الله ﷺ: «ما أَبْقيتَ لأهلِكَ»

قلت: مثلَه، قال: وأتى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكل ما عندهُ فقَال له رسولُ الله ﷺ: «ما أَبْقَيْتَ لأهْلِكَ؟» قال أبقيتُ لهم اللهَ ورسولَه، قلتُ: لا أسابقُك إلى شيء أبدًا»[(١)].

فكان ما فعله عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من المنافسة والغبطة المباحة لكنَّ حال الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أفضلُ منه وهو خالٍ من المنافسة مطلقًا لا ينظر إلى حال غيره.

وكذلك موسى عليه الصلاة والسلام في حديث المعراج حصل له منافسةٌ وغبطةٌ للنَّبي ﷺ حتى بكى لما تجاوزه النَّبيُّ ﷺ فقِيلَ له: «ما يُبكيكَ؟» فقال: «لأَنَّ غُلامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجنَّة مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ ممَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي»[(٢)] أخرجاه في الصحيحين. انتهى كلام شيخِ الإسلام[(٣)].

أضرار الحسد على الحاسد في الآخرة:

١ - الحاسد معترضٌ على أقدار الله:

إذا علم الحاسدُ أنه بحسده لأخيه المسلم إنَّما يعترض على أقدار الله ويكره حكم الله وينازع ربه في قسمته التي قسمها لعباده، فهو سبحانه الذي جعل هذا غنيًا وجعل هذا ذكيًا وجعل هذا عالمًا وأعطى هذا المال

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥)، والدارمي (١/ ٤٨٠)، باختلاف يسير.
قال الترمذي (٣٦٧٥): حسن صحيح، وقال ابن الملقن في البدر المنير (٧/ ٤١٣): وهو حديث صحيح، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٣٦٧٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤)، من حديث مالك بن صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/ ١١١-١١٠/ ١١٨) باختصار.

ورزق هذا العيال، وكتب القبول لذاك فهو سبحانه الذي قدَّرَ المقادير وخلق كلَّ شيء بقدر كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر]، وكما قال نبيه ﷺ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ**»[(١)] وقال ﷺ: «**كُلُّ شَيءٍ بِقدَرٍ حتى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ**[(٢)]»[(٣)] ومن هذا قولُ الله عز وجل للمشركين الذين قالوا: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]، قال الله سبحانه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء].

٢- الحاسد متشبه بالمشركين:

وإذا علم الحاسدُ أنه مُتَشَبه بِالمشركين وبالمنافقين في تمنيهم الشَّرَّ للمسلمين وزوال النعم عنهم كما قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، ولو علم المسلمُ أنَّه منهي عن التَّشَبُّه بالمشركين في معتقداتهم وسيمَتِهم ودينهم لترك حسد إخوانه المؤمنين مَنْعًا لنفسه من أن يتورطَ مع من تَشبَّه بِهِم في أُخراه حيثُ سوء المصير.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٥٣)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) معنى الكيس: هو النشاط والحذق بالأمور وهو ضد العجز.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٥٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

٣- الحاسد جندي من جند إبليس:

وإذا علمَ الحاسدُ أنَّه بحسده للمؤمنين يكون جنديًّا من جند إبليسِ يُسخِّرُهُ إبليسُ لإمضاء ما يريد في عباد الله الصالحين لانكَفَّ عن حسده، فمن ذا الذي يريدُ أن يكون جنديًّا لإبليس اللعين وعدوًّا لله ربِّ العالمين معترضًا على قدره وشرعه مسخطًا له مُرضيًا لأوليائه الشياطينَ؟!!

٤- الحاسد مفارقٌ للمؤمنين:

لو علمَ الحاسدُ أنَّه بحسدِه للمؤمنين يفارقُهم في حُبهِم الخير بعضهم لبعضٍ كما قال تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وأنَّهُ بِمفارقتهم في الدنيا يُوشكُ أن يُفَارِقَهُم في الآخرة ، فمن أحب قومًا حُشر معهم لو علم ذلك لانزجر عن حسده.

٥- الحاسد معذبٌ في الآخرة:

إذا علم الحاسد ما سَيَحِلُّ به من عذابِ الله سبحانه في الآخرة ومن عقابٍ عظيمٍ من جزاءِ ما تقدَّمَ لانزجرَ ولانكفَّ عن حسده للناسِ واستغفر ربَّهُ كل ما اقترفه على نفسه وجرَّهُ على المسلمين.

٦- حسنات الحاسد تذهب للمحسود:

أيها الحاسدُ إن المحسود يَنْتَفِعُ بحسدك له في الآخرة فهو مظلومٌ منك، فيأخذُ من ديوان حسناتك ويضم إلى ديوان حسناته ويُطرَحُ من ديوان سيئاته ويُحَطُّ على ديوان سيئاتك، ولاسيما إذا أخرجت الحسدَ إلى القول

والفعلِ بالغيبة والقدح فيه وهتك سترِه فهي هدايا تهدى إليه وأنت لا تشعرُ والموفَّقُ من وفَّقَهُ الله[١].

الأضرار على الحاسد في الدنيا:

فمنها كما لخصه أهل العلم:

١ - الحاسد دائمًا في الهمِّ والحزنِ:

إن الحاسدَ بسببِ الحسد لا يزالُ في الهمِّ والحزن والنَّكَد والكمد، والنَّاس ينعمُ الله عليهم بأنواعٍ من النِّعمِ دائمًا فلا يزالُ الحاسد يُعذَّبُ بكل نعمةٍ يراها على النَّاس.

٢ - الحاسد قد يتمنَّى لنفسِهِ البلاءَ:

ثم إنَّ الحاسد- وهو لا يدري- قد يتمنَّى لنفسه البلاءَ بحسده للنَّاسِ فقد تكون النعمةُ التي يعيش النَّاسُ في كنفها ابتلاءً من الله سبحانه وتعالى لهم، وقد عافاهُ الله من ذلك الابتلاء فيتمنَّاهُ لنفسه[٢] وأيضًا إذا رُزق هو هذه النِّعَم وزفت إليه وجوه الإحسان لم ينفَكّ عن حاسدٍ يحسدُهُ، فلو

---

(١) انظر: التسهيل لتأويل التنزيل- تفسير جزء عمَّ لشيخنا مصطفى بن العدوي (٢/ ٧٤٦)، باختصار.

(٢) كمن يحسد الناسَ على المال مثلا فيتمنى أن يرزق مالًا فإذا أعطاه الله من فضله بغى وطغى وأفسد في الأرض وأنفقه في الحرام فكان هذا المال نقمة عليه نعمة على غيره، فهو تمنى النقمة والابتلاء وهو لا يشعر- أو كالذي يحسد أهل العلم ويتمنى ما عندهم فإذا رزقه الله العلم قد يفسد قلبه ويمرض بالرياء والعجب والكبر وحب الجاه والرياسة وصرف وجه الناس إليه إلى غير ذلك من الآفات التي تهلك صاحبها وقد تدخله النار إن لم يتب.

أذهب الله النعمةَ عنك لحسده لك فقد زالت عنك نِعمٌ في الدين والدنيا.

هل يَحْسُدُ المؤمن؟

نعم: قد يحسدُ المؤمن أخاه، ومن ثَمَّ قال نَبِيُّ الله الكريم يعقوبُ لولده يوسفَ عليهما السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥﴾، وقال إخوةُ يوسف: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ [يوسف].

وحديث عامرِ بن ربيعةَ وكيف اتَّجه بعينه إلى سهلِ بن حنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الحديث في مسند أحمد وغيرِه وفيه: «أن سهلَ بن حنيفٍ قال: رأى عامرُ بن ربيعةَ سهلَ بن حنيفٍ يغتسلُ فقال: ما رأيتُ كاليومِ ولا جِلْدَ مُخَبَّأَةٍ فلُبط سَهل فأتى رسولَ الله ﷺ فقيل: يا رسول الله هل لك في سهلِ بن حنيفٍ والله ما يرفع رأسَهُ فقال: «**هل تَتَّهِمُونَ له أَحَدًا؟**» قالوا: نَتَّهِمُ عَامرَ بن ربيعةَ قال: فَدَعَا رسول الله ﷺ عَامرًا فَتَغَيَّظَ عَليه، وقال: «**علامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ أَلا بَرَّكْتَ**[1]؟ **اغْتَسِلْ له**» فَغسلَ عامرٌ وجهَهُ ويدَيْه ومرفقَيْهِ وركبَتَيْهِ وأطرافَ رجليْهِ وداخلةَ إزارِهِ في قدحٍ ثم صبَّ عليه فراحَ سهلٌ مع النَّاسِ ليسَ به بأسٌ»[2].

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أم سلمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ رسول الله

---

(١) وفي رواية «إذا رأى أحدُكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة».

(٢) صحيح: أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٦١٧)، وأحمد (٣/ ٤٨٥)، وابن ماجه (٣٥٠٩)، والنسائي في السنن الكبرى (٧٦١٩)، وابن حبان (١١٠٠)، باختلاف يسير، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٥٠٩).

ﷺ قال لجارية في بيت أم سلمةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا زوجِ النبيِّ ﷺ رأى بوجهها سفعةً[١] فقال: «**بِهَا نَظْرَةٌ فَاسْتَرْقُوا لها**»[٢].

وفي الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: «**كان رسولُ الله ﷺ يأمُرُني أن أَسترقِيَ مِن العَيْنِ**»[٣].

ما الفرقُ بين العينِ والحسد؟

اعلم أن كل عائنٍ حاسدٌ، وليس كلُّ حاسد عائنًا، فالحسدُ أشملُ من العين.

قال ابن القيمِ: والعائنُ والحاسدُ يشتركان في شيءٍ ويفترقان في شيء:

فيشتركان في أنَّ كلَّ واحدٍ منهما تتكيفُ نفسه وتتوجَّهُ نحو من يريد إذاه.

فالعائنُ: تَتكَيفُ نفسُهُ عند مقابلة المعين ومعاينته.

والحاسدُ: يحصلُ له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره أيضًا.

ويفترقان في أنَّ العائن قد يصيبُ من لا يحسدُهُ من جمادٍ أو حيوانٍ أو زرع أو مالٍ وإن كان لا يكادُ ينفَكّ من حسد صاحبِه، وربّما أصابت عينُه نفسه فإنَّ رؤيته للشيء رؤية تعجبٍ وتحديقٍ مع تكيف نفسه بتلك الكيفية تؤثر في المعين.

قلتُ -ابن القيم-: النظر الذي يؤثر في المنظور قد يكون سببه شدة

---

(١) السفعة: التغير والسواد، أو لون يخالف لون الوجه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٣٩)، ومسلم (٢١٩٧).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٣٨)، ومسلم (٢١٩٥).

العداوة والحسد فيؤثرُ نظرُهُ فيه كما تُؤَثر نفسه بالحسد ويَقوى بتأثير النفسِ عند المقابلة فإن العدو إذا غاب عن عدوه فقد يشغل نفسه عنه، فإذا عاينه قبلًا اجتمعت الهمة عليه وتوجهت النفس بكليتها إليه فيتأثر بنظره حتى إن من النَّاس من يسقط ومنهم من يُحَمُّ ومنهم من يُحمَلُ إلى بيته، وقد شاهد النَّاس من ذلك كثيرًا.

وقد يكون سببه الإعجاب وهو الذي يسمونه بإصابة العين وهو أن الناظرَ يرى الشيء رُؤْيَةَ إعجابٍ أو استعظامٍ فتتكيفُ روحهُ بكيفيةٍ خاصةٍ تؤثر في المعين، قال رسول الله ﷺ: «**الْعَيْنُ حَقٌّ**»(١).

والمقصودُ: أنَّ العائنَ حاسد خاص وهو أضرُّ من الحاسد، ولهذا – والله أعلم – إنَّمَا جاء في السورة ذكر الحاسد دون العائن لأنه أعمُّ فكلُّ عائنٍ حاسدٌ ولا بدَّ وليس كلُّ حاسدٍ عائنًا، إذا استعاذ من شرِّ الحاسد دخل فيه العائن، وهذا شمولُ القرآن وإعجازه وبلاغته(٢).

كيف يندفع شرُّ الحاسد عن المحسود؟

لا بدَّ من الأخذ بالأسبابِ لدفع الحسد لأنَّ ترك الأسباب بالكلية طعنٌ في الشريعة، والاعتماد على الأسبابِ شركٌ كما قرر هذا المعنى علماءُ أهل السنَّة ومنهم شيخُ الإسلام شرطَ أن تكون هذه الأسبابُ منضبطةً بالضوابط الشرعيَّة، فلا يجوزُ أن يطلب أحدٌ من عرافٍ أو دجالٍ علاجًا للحسد أو دفع الحسد، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَله عن شَيءٍ لَمْ**

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٤٠)، ومسلم (٢١٨٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: بدائع التفسير (٥/ ٤١٦) بتصرف يسير.

تُقْبَلْ له صَلاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَة»[١].

ولا يجوز تَعليقُ التمائم[٢] والعلائقُ اعتقادًا من صاحبِها أنها تدفع عنه شرَّ عين الحاسد، وبعضُ النساء يتخذنَ قلادةً تعلقُ بها خرزةً زرقاء اللون، اعتقادًا منها أن الحاسد يتجه بنظره إلى القلادة فيندفع عنها شرُّ الحسدِ.

وهذا كلُّه من الشِّرْكِ قال رسول الله ﷺ: «**التَّمَائِمُ وَالتِّوَلَةُ**[٣] **شِرْكٌ**»[٤].

قال ابن القيمِ: ويندفعُ شرُّ الحاسدِ عن المحسود بعشرة أسبابٍ:

أحدها: التعوذ بالله من شرِّه:

والتحصنُ به واللجوء إليه وهو المقصودُ بهذه السورة: «الفلق» والله تعالى سميعٌ لاستعاذَته عليمٌ بما يستعيذ منه، والسمعُ هنا المرادُ به: سمعُ الإجابة لا السمع العام، فهو مثل قوله: «سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ» وقول الخليل ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم].

السبب الثاني: تقوى الله:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٣٠)، من حديث صفية بنت أبي عبيد، عن بعض أزواج النبي ﷺ.

(٢) التمائمُ: جمع تميمة، وهي خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم يتقون بها العين في زعمهم، فأبطلها الإسلام. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (ص: ١١٢).

(٣) التّولة: ما يحبب المرأة إلى زوجها من السحر وغيره، جعله من الشرك لاعتقادهم أن ذلك يؤثر ويفعل خلاف ما قدره الله تعالى. النهاية (ص: ١١٣).

(٤) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٨٨٣)، وأحمد في المسند (٣٦١٥)، وأبو يعلى (٥٢٠٨)، والبيهقي (١/ ٣٥٠)، والبغوي (٣٢٤٠)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٨٨٣).

وحفظُه عند أمرِه ونهيه، فمن اتَّقى اللهَ تولى اللهُ حفظه ولم يَكِلْهُ إلى غيرِه، قال سبحانه تعالى: ﴿تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ**»(١) فمن حفظَ اللهَ حفظه الله، ووجده أمامَه أينما توجَّه ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخافُ؟ ومن يحذرُ؟

السبب الثالث: الصبر على عدوه:

وألَّا يقاتله ولا يشكوه ولا يحدث نفسه بأذاه أصلًا فما نُصرَ على حاسده وعدوه بمثلِ الصبر عليه والتوكل على الله ولا يستطل تأخيره وبغيه فإنه كلما بُغي عليه كان بغيُه جندًا وقوةً للمبغي عليه المحسود يقاتل به الباغي نفسَه وهو لا يشعر فبغيه سهامٌ يرميها من نفسه إلى نفسه ولو رأى المبغي عليه ذلك لسرَّه بغيُه عليه ولكن لضعف بصيرته لا يَرى إلَّا صورة البغي دون آخرِه وماله.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩، ٢٧٦٣)، وتمامه: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بالله، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ».
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. انتهى، وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص: ٤٥٩): وبكل حال، فطريق حنش التي خرجها الترمذي حسنة جيدة. انتهى، وحسنه ابن حجر في موافقة الخبر الخبر (١/ ٣٢٧)، وصححه لغيره الوادعي في الصحيح المسند (٦٨٥).

قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠]، فإذا كان الله قد ضَمِنَ له النصرَ مع أنَّه قد استوفى حقَّه أولًا فكيف بمن لم يستوف شيئًا من حقه بل بُغِيَ عليه وهو صابرٌ وما من الذُّنُوب ذنبٌ أسرع عقوبةً من البغي وقطيعة الرحمِ.

السبب الرابع: التوكل على اللهِ:

فمن توكَّلَ على الله فهو حسبُهُ والتوكلُ من أقوى الأسبابِ التي يدفعُ بها العبدُ ما لا يطيقُ من أذَى الخلق وظلمهم وعدوانهم... قال بعض السَّلف: جعل الله لكلِ عملٍ جزاءً من جنسه وجعلَ جزاء التوكّلِ عليه نفس كفايته لعبده فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، ولم يقل: نُوْتِه كذا وكذا من الأجرِ كما قال في الأعمال بل جعل نفسه سبحانه كَافِيَ عبدَه المتوكلَ عليه وحسبه وواقيه، فلو تَوَكَّلَ العبدُ على الله حقَّ تَوكُّلِه وكادَتْهُ السَّمواتُ والأَرضُ ومن فيهنَّ لجعل له ربُّهُ مخرجًا من ذلك وكَفاهُ ونصرَهُ.

السبب الخامس: فراغ القلبِ من الاشتغالِ بِه:

فراغُ القلبِ من الاشتغال بِه والفكرِ فيه، وأن يقصد أن يَمحُوَهُ من باله كلما خطر له، فلا يلتفتُ إليه ولا يَخافُهُ ولا يملأُ قلبه بالفكرِ فيه.

وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسبابِ المعينة على اندفاعِ شرِّه فإن هذا بمنزلة من يطلبُه عدوه ليمسكَهُ ويؤذيَه فإذا لم يتعرض له ولا تماسَكَ هو وإياه، بل انعزل عنه لم يقدر عليه فإذا تماسكَا وتعلق كُلٌّ منهما بصاحبه

حصل الشَّرُّ وهكذا الأرواح سواء، فإذا علقَ روحه وشبثها به وروحُ الحاسد الباغي متعلقةٌ به يقظةً ومنامًا لا يفتر عنه فإذا تعلقَت كُلُّ روحٍ منهما بِالأخرى عُدِمَ القرارُ ودام الشَّرُّ حتى يهلك أحدهما...

فإذا خَطرَ بِباله بادر إلى محو ذلك الخاطرِ والاشتغال بما هو أنفعُ له وأولى به بَقي الحاسدُ الباغي يأكل بعضُه بعضًا، فإنَّ الحسد كالنَّارِ فإذا لم تجد ما تَاكلُه أكل بعضُها بعضًا.

وهذا بابٌ عظيمُ النفعِ لا يلقاه إلا أصحابُ النُّفوسِ الشَّريفة والهممِ العلية وبين الكيسِ الفطنِ وبينه حتى يذوقَ حلاوته وطيبه ونعيمه كأنَّه يرى من أعظمِ عذابِ القلبِ والروحِ اشتغاله بعدوه وتعلق روحه بِه ولا يرى شيئًا آلَمًا لروحه من ذلك ولا يصدقُ بهذا إلا النُّفوسُ المطمئنةُ الوادعةُ اللينةُ التي رَضِيَت بوكالة الله لها وعلمَت أنَّ نَصْرَه لها خيرٌ من انتصارِها لنفسها فوثقت بالله وسكنت إليه واطمأنت بِه.

السبب السادس: هو الإقبال على اللهِ والإخلاص له:

وجعل محبَّته ورضَاه والإنابَةَ إليه في محلِ خواطرِ نفسه وأمانيها، تدبُّ فيها دبيبَ تلك الخواطرِ شيئًا فشيئًا حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية، فتبقى خواطرُه وهواجسُه وأمانيه كُلُّهَا في محابِ الرَّبِّ والتقربِ إليه وتَملقِه وتَرَضيه.. فإذا صار كذلك فكيفَ يرضَي لنفسه أن يجعلَ بيت أفكارِه وقلبِه معمورًا بالفكرِ في حاسده والباغِي عليه والطريق إلى الانتقام منه والتدبير عليه؟ هذا ما لا يتسعُ له إلا قلبٌ خَربٌ لم تسكن فيه محبةُ الله وإجلالُه

وطلبُ مرضاته.

وقال عدُوُّ الله إبليسُ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص]، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل].

وقال في حقِّ الصديقِ يوسفَ عليه الصلاة والسلام: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف].

السبب السابع: تجريدُ التوبة إلى الله من الذُّنُوب:

التي سَلَّطَت عليه أعداءَه، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال لخير الخلقِ وهُم أصحابُ نبيِّهِ دونَه ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فما سُلِّطَ على العبد من يُؤذيه إلا بذنبٍ يعلمُهُ أو لا يعلمهُ، وما لا يعلمه العبدُ من ذنوبِه أضعافُ ما يعلمُهُ منها، وما ينساه مما عمله أضعافُ ما يذكره..

وسنذكُر إن شاء الله تعالى أنَّهُ ليس في الوجود شرٌّ إلا الذُّنُوبُ وموجباتُها، فإذا عُوفيَ العبد من الذُّنُوب عُوفيَ من موجباتها، فليس للعبد –

إذا بُغي عليه وأُوذِي وتَسلطَ عليه خصومُه- شيءٌ أنفعَ له من التوبة النصوح.

وعلامةُ سعادته: أن يعكسَ فكرَه ونظرَه على نفسه وذنوبِه وعيوبِه فيشتغلُ بها وبإصلاحها وبالتوبة منها... والله يتولَّى نصرتَه وحفظَه والدفعَ عنه ولا بدَّ، فما أسعدَهُ من عبد.

السبب الثامن: الصدقةُ والإحسانُ ما أمكنه:

فإنَّ لذلك تأثيرًا عجيبًا في دفعِ البلاء ودفع العين وشرِّ الحاسد ولو لم يكن في هذا إلا بتجارب الأمم قديمًا وحديثًا لكفى به، فما تكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملاً فيه باللطف والمعونة والتأييد وكانت له فيه العاقبةُ الحميدةُ.

وبالجملة: فالشكرُ حارسُ النعمة من كل ما يكون سببًا لزوالها... فالمحسنُ المتصدق يستخدم جُندًا وعسكرًا يقاتلون عنه وهو نائمٌ على فراشه فمن لم يكن له جندٌ ولا عسكرٌ وله عدوٌ فإنه يوشك أن يظفرَ به عدوّه وإن تأخرت مدة الظفرِ والله المستعانُ.

السبب التاسع: وهو من أصعبِ الأسبابِ على النفسِ:

وأشقها عليها ولا يوفقُ له إلا من عظمِ حظُّه من الله وهو إطفاء نارِ الحاسدِ والباغِي والمؤذي بالإحسانِ إليه، فكلما ازداد أذى وشرًّا وبغيًا وحسدًا ازددت إليه إحسانًا وله نصيحةً وعليه شفقةً.

فاسمع الآن قوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت].

وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص].

وتأمل حالَ النبي ﷺ: «أنه ضربه قومُه حتى أدموه، فجعلَ يسلت الدمَّ عنه ويقولُ: «**اللهمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**»[(١)] كيف جمع في هذه الكلمات أربعَ مقامات من الإحسانِ قابل بها إساءتهم العظيمةَ إليه؟

أحدها: عفوُه عنهم والثاني استغفارُه لهم والثالث: اعتذارُه عنهم بأنهم لا يعلمون والرابع: استعطافُه لهم بإضافتهم إليه، فقالَ: «اغْفِر لِقَوْمِي».

واسمع الآن ما الذي يسهلُ هذا على النفسِ ويطيبه إليها وينعمها به.

اعلم أنَّ لك ذنوبًا بينك وبين الله تخافُ عواقبها وترجُوه أن يعفو عنها ويغفرها لك ويهبها لك ومع هذا لا يقتصرُ على مجرد العفو والمسامحة حتى ينعم عليك ويكرمك ويجلبُ عليك من المنافعِ والإحسان فوق ما تؤمله

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإذا كنت ترجو هذا من ربك وتحب أن يقابل به إساءتك فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه وتقابل به إساءتهم، ليعاملك الله تلك المعاملة فإنَّ الجزاءَ من جنسِ العمل.

السبب العاشر: وهو الجامعُ لذلك كله وعليه مدارُ هذه الأسبابِ، وهو تجريدُ التوحيد:

والترحلُ بالفكرِ في الأسبابِ إلى المسببِ العزيز الحكيم، والعلمُ بأن هذه الآلات بمنزلة حركات الرياحِ وهي بيدِّ محركها وفاطرها، وبارئها ولا تضرُّ ولا تنفعُ إلا بإذنه- قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقال ﷺ: لعبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ على أن يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا على أن يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ**»[(١)].

فإذا جرد العبدُ التوحيد فقد خرج من قلبِه خوفُ ما سواه، وكان عدوُّه أهونَ عليه من أن يخافه مع الله، بل يفردُ اللهَ بالمخافة وقد أمنه منه وخرج من قلبِه اهتمامه به واشتغاله به وفكرِه فيه وتجرد لله محبةً وخشيةً وإنابةً وتوكلاً واشتغالًا به عن غيره فيرى أن إعماله فكرِه في أمرِ عدوِّه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده، وإلا فلو جرد توحيدَه لكان له

(١) صحيح، تقدم تخريجه.

فيه شغل شاغل والله يتولى حفظَه والدفع عنه، وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه[١].

فائدةٌ:

حتى لا يأخذَ المحسودُ حسناتك يوم القيامة حتى لا يبغضك الله ويبغضك النَّاس عليك بجهاد النفسِ على ترك الحسد، وأولُ الطريق هو أن تقول من قلبك حين يعجبُك شيءٌ سواء كان ماديًّا كالأموال والسياراتِ والبيوت وغيرِها أو شيئًا معنويًا كالإعجابِ بما عند الشخص من علم أو حضور أو قبول أو أيّ شيء تقول دفعًا للحسد الدعاءَ الذي علَّمه النبيُّ ﷺ لأمَّته في مثل هذه المواقف: «اللهمَ بَارِك» لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال للرجل الذي اتّجه بعينه إلى سهل «**عَلامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟ أَلا بَرَّكْتَ**»[٢] والموفَّقُ من وفَّقَه الله تعالى.

ويعينك على ذلك، ويقوي إرادة الخير عندك: معرفة الأسماء والصفات، «فالسير إلى الله من طريق الأَسماءِ والصفات شأْنه عجب، وفتحه عجب، صاحبه قد سِيقَت له السعادة، وهو مستلقٍ على فراشه، غير تعب ولا مكدود، ولا مشتت عن وطنه ولا مشرد عن سكنه»[١].

---

(١) بدائع التفسير (٥/ ٤٢٥) وما بعدها بتصرف.

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

(١) ما بين القوسين من طريق الهجرتين لابن القيم (ص: ٢١٥).

المرض السابع
سوء الظن

الظن في اللغة: الظن معروف، وقد يوضع موضعَ العلم، والظنُّ: الشكُّ، قاله ابنُ فارس[١].

وفي الاصطلاح: مدخلٌ من مداخلِ الشيطان ليفسدَ قلب العبد ويمرضه بظنِّه الشرّ بالمسلمين، فقد نهى الله تعالى ونهى رسولُه ﷺ عن سوءِ الظنِّ.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات].

قال القرطبيُّ: ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيّ ﷺ قال: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ ولا تَحَسَّسُوا**[٢] **ولا تَجَسَّسُوا**[٣] **ولا تَحَاسَدُوا ولا تَدَابَرُوا ولا تَبَاغَضُوا وَكُونُوا عِبَادَ الله**

---

(١) انظر: الصحاح تاج اللغة (٦/ ٢١٦٠)، ومجمل اللغة لابن فارس (٥٩٩).

(٢) التحسس: الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون- تفسير ابن كثير (٤/ ٢٦٧).

(٣) التجسس: البحث عن الشيء- المصدر السابق.
وعن يحيى بن أبي كثير أنه قال التجسس البحث عن عورات المسلمين والتحسس الاستماع لحديث القوم. وكان أبو عمر يقول التحسس بالحاء أن يطلبه لنفسه والتجسس أن يكون رسولا لغيره. انظر: غريب الحديث للخطابي (١/ ٨٤).

إِخوانًا»[١].

قال علماؤُنَا: فالظنُّ هنا في الآية هو التهمة ومحل التحذير والنهي إِنّمَا هو تهمة لا سبب لها يوجبها، كمن يتهم بالفاحشة أو يشرب الخمر مثلًا ولم يظهر علة ما يقتضي ذلك، ودليلُ كون الظنِّ هنا بمعنى التهمة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ وذلك أَنَّهُ قد يقع له خاطرُ التهمة ابتداءً ويريد أن يتجسس خبرَ ذلك ويبحث عنه ويتبصر ويستمع لتحقيقِ ما وقع له من تلك التهمة فنهى النَّبِيُّ ﷺ عن ذلك وإن شئت قلت: والذي يميزُّ الظنون التي يجبُ اجتنابُها عما سواهَا، أن كلَّ ما لم تعرف له أمارةٌ صحيحةٌ وسببٌ ظاهرٌ كان حرامًا واجب الاجتنابِ وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه السترُ والصلاحُ وأونست منه الأمانةُ في الظاهرِ فظنُّ الفسادِ بِه والخيانة محرمٌ بخلاف من اشتهره النَّاسُ بتعاطِي الريبِ والمجاهرة بالخبائث اهـ.

قال أحد العلماء: والظنُّ خواطرُ تقعُ في القلبِ ربما لا يستطيع الإنسان دفعَها فيجب عليه أن يضعفها بظنِّ الخيرِ فإن لم يستطع فعليه أن يتذكر عيوبه وخفايا ذنوبِه لينشغل بها عن عيوبِ النَّاس فإن لم يستطع أن يدفع الظنَّ السيءَ بِذلك فعليه ألا يتكلم به أو يبحث عن تحقيقه وبهذا يسلم من الإثم لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ تجاوَزَ لِأُمَّتي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أنفُسَهَا مَا لَمْ يَتكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ**»[٢].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٦٤)، واللفظ له، ومسلم (٢٥٦٣).

(٢) متفق عليه، تقدم تخريجه.

المرض الثامن
احتقار المسلمين

الاحتقار في اللغة: الحَقْرُ: الذِّلَّةُ ، حَقَر يَحْقِر حَقْراً وحُقْرِيَّة ، وكذلك الاحتقار. وتحقير الكلمة: تصغيرها. ومن أمثالهم: مَن حَقَرَ حَرَمَ، في اصْطِناع المَعْروفِ وإنْ قَلَّ[١].

وفي الاصطلاح: احتقارُ المسلم لأخيه المسلمِ، وهو من أعظم الذُّنُوبِ وقد نَهى الله تعالى عن السُّخرِية التي هي احتقارُ المسلمين والاستهزاءُ بهم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ [الحجرات: ١١].

قال القاسمي: قال أبو السعود: فإنَّ مناطَ الخيرية في الفريقين ليس ما يُظهرُ النَّاسُ من الصور والأشكال ولا الأوضاع والأطوار التي يدورُ عليها أمرُ السُّخرِية غالبًا بل إنَّمَا الأمورُ الكامنة في القلوبِ فلا يجترئ أحدٌ على احتقار أحد فلعله أجمعَ منه لما نيطَ له من الخيرية عند الله تعالى فيظلم نفسه بتحقيرِ من وقَّرَه الله تعالى والاستهانة بمن عظَّمَه الله تعالى، ومن أهلِ التأويلِ من خصَّ السُّخريةَ بما يقعُ من الغني للفقير، وآخرون بما يعثرُ من أحدٍ على زلة أو هفوة فيسخر به من أجلِها[٢].

---

(١) انظر: المحيط في اللغة (١/ ١٦٤)، والصحاح تاج اللغة (٢/ ٦٣٥)، ومجمل اللغة لابن فارس (ص: ٢٤٥).

(٢) محاسن التأويل (٦/ ٣٠١).

قال الطبريُّ: والصواب أن يُقال إنَّ اللهَ عمَّ بنهيه المؤمنين عن أن يسخر بعضُهم من بعضٍ جميع معاني السُّخرِية فلا يحلُّ لمؤمنٍ أن يسخر من مؤمنٍ لا لنقرةٍ ولا لذنبٍ رَكِبَه ولا لغير ذلك[١].

وقال رسول الله ﷺ: «**المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُه ولا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا- وَيُشيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ- بِحَسْب امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أن يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ...**»[٢].

كما أَنَّهُ لا يجوزُ تحقيرُ المسلم لابتلاءٍ أصابه في بدنه أو لنقص عندهُ في أمرٍ من أمور الدنيا، كذلك لا يجوزُ تحقيرُ المسلم لتفريطه في أمرٍ من أمور الدين فلا يعلمُ أحدٌ قدرَه عند الله، ولا يعلم أحد هل تقبل الله عمله أم لا؟ وقد تقدم في باب الرِّيَاءِ أنَّ أول من يُسعر به النار عالمٌ فلا يغترَّ أحدٌ بطاعته فيحقر أهل المعاصي، فلا أحد منّا يدري بما سيختمُ له، والأعمالُ بالخواتيمِ.

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (١٣/ ١٦٩).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المرض التاسع
احتقار الذنوبِ

تقدم معنى الاحتقار في اللغة، وفي الاصطلاح.

يجبُ على المسلمِ العاقلِ أن يعلم صفات الإله الذي يعبدُه ويتقربُ إليه، فلا بد أن تعلم أنَّك تعبد إلهًا عليمًا خبيرًا رقيبًا مهيمنًا قيومًا يعلم السرَّ وأخفَى مالكُ الملك الجبارُ سبحانه وتعالى وعز وجل.

فإذا علم العبدُ من هو الله، استعظم جميع الذُّنُوبِ وقد قال غيرُ واحد من الحكماء: لا تنظر إلى صغرِ المعصية، ولكن انظر إلى عِظَمِ من عصيت.

قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة].

«وهذه الآيةُ فيها غايةُ الترغيبِ في فعلِ الخيرِ ولو قليلًا، والترهيبُ من فعل الشر ولو حقيرًا»(١).

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إِنَّكُمْ لَتعْمَلُونَ أَعْمَالاً هِيَ أَدَقُّ في أعْيُنِكُمْ مِنْ الشَّعْرِ إن كُنَّا لنَعُدُّها على عَهْدِ النبيِّ ﷺ مِنْ الموبِقَات»(٢) قال أبو عبد الله: يَعْني بَذلك الْمُهلِكَاتِ.

وفي حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فإِنَّمَا مثلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْم نَزَلُوا في بَطْن وَادٍ فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ**

---

(١) ما بين القوسين من تفسير السعدي (٩٣٢).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٩٢).

وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حتى جَمَعُوا مَا أنضَجُوا بِه خُبْزَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ»[(١)].

قال ابن بطال: المحَقَّرَاتُ إذا كثرت صارت كبارًا مع الإصرار[(٢)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ المُؤْمِنَ إذا أَذْنَب كَانتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ في قَلْبِهِ، فَإن تَابَ وَنزَع وَاسْتَغْفَرَ صُقَلَ قَلْبُهُ فإن زَاد زَادتْ فَذلك الرّانُ الذي ذَكَرهُ الله في كِتَابِهِ**»[(٣)] ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين].

وقال قتادة في قوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾: هذا الذنب على الذنب حتى يرين على القلب، فيسود[(٤)].

مما تقدَّم يتبين لنا خطر تحقيرِ الذُّنُوبِ واقترافها بحجة أنَّها صغيرةٌ فيجب على العبد الراغب في النجاة أن لا يتهاون بالذُّنوب ولا يحقر ذنبًا صغيرًا كان أم كبيرًا.

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٣٨١٨)، والطيالسي (٤٠٠)، والطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ٢٦١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٧٦٢)، وفي الشعب (٧٢٦٣).
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ١٨٩): ورجالها رجال الصحيح غير عمران بن داود القطان وقد وثق. انتهى، وحسنه الحافظ في الفتح (١١/ ٣٣٧)، والألباني في صحيح الجامع (٢٦٨٧).

(٢) انظر: فتح الباري (١١/ ٣٣٧).

(٣) إسناده صحيح: أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وأحمد (٧٩٥٢)، وصحح إسناده الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٤/ ١٢٠).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٢٨٩).

المرض العاشر
النفاق العقدي

النفاق في اللغة: النِّفاق بالكسر، مأخوذ من مادة نَفَقَ، والنَّفَقُ هو المسلك بين طريقين، فيدخل الإنسان من جانب، ويخرج من هذا النفق من جانب آخر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣٥][(١)].

وقال ابن رجب: والذي فسر به أهل العلم المعتبرون: أن النِّفاقَ في اللغة: هو من جنس الخداع، والمكر، وإظهار الخير، وإبطان خلافه[(٢)].

وفي الاصطلاح: مخالفةُ الباطن للظاهر[(٣)].

المنافقون يظهرون غيرَ ما يبطنُون، وكذا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبِهم لا يعتقدون صدق القرآن ولا صدق رسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [المنافقون].

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور (٨/ ٦٥٧)، ومقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٤٥٥)، والمفرادات (ص: ٥٠٤).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص: 481).

(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر (١/ ١١١).

«والله يشهد إن المنافقين لكاذبون في إخبارهم عن أنفسهم أنها تشهد إنك لرسولُ الله، وذلك أنها لا تعتقد ذلك ولا تؤمن به، فهم كاذبون في خبرهم عنها بذلك»[١].

قال ابن كثير: يقول الله تعالى مخبرًا عن المنافقين: إنهم إنَّما يتفوهون بالإسلام إذا جاءوا النَّبيَّ ﷺ فأما في باطنِ الأمرِ فليسوا كذلك بل على الضد من ذلك ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: فيما أخبروا به، وإن كان مطابقًا للخارج، لأنَّهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه ولذا كذَّبَهم بالنسبة إلى اعتقادهم[٢].

حكم النفاق العقدي:

النفاقُ العقديُّ مخرجٌ من الملة؛ لأنَّ أصل الإيمان قولُ اللسان وتصديقُ القلبِ، وعملُ الجوارحِ، فلا بدَّ من تصديقِ القلب؛ لأنَّ المكذب بقلبِه قولَ الله ورسوله -حتى لو قال غير ما في قلبه- فهو منافقٌ نفاقًا عقديًا خالدًا في النّارِ.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ [التوبة: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٣٩٠).
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٥٢).

وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء].

قال الطبري: إن الله جامع الفريقين من أهل الكفر والنفاق في القيامة في النار، فموفِّق بينهم في عقابه في جهنم وأليمِ عذابه، كما اتفقوا في الدنيا فاجتمعوا على عداوة المؤمنين، وتوَازَرُوا على التخذيل عن دين الله، وعن الذي ارتضاهُ وأمر به، وأهلِه[1].

اعلم أنَّ أعمالَ الجوارحِ من صلاةٍ وصيامٍ وصدقةٍ وحجٍّ مع جحودِ القلبِ لا تنفعُ العبد لأنَّ عبدَ الله بنَ أبي بنِ سلول زعيم المنافقين كان يصلي مع النبي ﷺ ويشهدُ معه المغازي وعندما مات نزل فيه[2] قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة]، فعلم الله أن هذا المنافق يقول أقوال المؤمنين ويفعل أفعال المؤمنين ولكنه يجحدُ ذلك في الباطن غير مصدَّقٍ بكتابٍ وسنةٍ فمات على النفاق العقديِّ.

فليحذر المسلمُ من الشكِّ في أيِّ أمرٍ من أمور الدين المعلومة بالضرورة والمتفق عليها بين أهل العلم، كمن يشكُّ في البعث، أو في الحسابِ، أو الجنة والنار، أو المرور على الصراط... وما أشبه ذلك من الأمورِ الغيبيَّة وغيرِها، بل يلزمُه أن يؤمن بكلِّ ما جاء في كتابِ الله وعلى

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٣٢٢).

(٢) انظر: أسباب النزول للعلامة مقبل بن هادي الوادعي (١٢٣).

لسان رسولِ الله ﷺ قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة]، أي: هذا الكتاب العظيم الذي هو الكتابُ على الحقيقةِ المشتملُ على ما لم تشتمل عليه كتبُ المتقدمين والمتأخرين من العلمِ العظيمِ والحقِّ المبين فلا ريب فيه ولا شكَّ فيه بوجهٍ من الوجوه[1].

(١) انظر: تفسير السعدي (٤٠).

المرض الحادي عشر
النفاق العملي

تقدم تعريف النِّفاق لغة، واصطلاحًا، والنوع الثاني من النِّفاق هو النِّفاقُ العمليُّ.

والنِّفاقُ العمليُّ لا يُخرِج صاحبه من الملة؛ لأنَّ المسلم المصدِّق الذي ليس عنده شكٌّ قد يكون فيه خصلةٌ من خصال النِّفاق.

قال رسول الله ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كان مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كانتْ فيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كانتْ فيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حتى يَدَعَهَا: إذا حَدَّثَ كَذَبَ وَإذا عَاهَدَ غَدَرَ وَإذا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإذا خَاصَمَ فَجَرَ**»(١).

وقال ﷺ: «**آيَةُ الْمُنافِقِ ثَلاَثٌ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ وَإذا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإذا ائْتُمِنَ خَانَ**»(٢).

قال النووي: اختلف العلماء في معناه، فالذي قاله المحققون والأكثرون وهو الصحيحُ المختار: إنَّ معناه أن هذه الخصال خصال نفاقٍ، وصاحبُها شبيهٌ بالمنافقين في هذه الخصال ومتخلقٌ بأخلاقهم، فإنَّ النفاق هو إظهارُ ما يبطنُ خلافَه، وهذا المعنى موجودٌ في صاحبِ هذه الخصال، ويكونُ نفاقهُ في حقِّ من حدَّثَه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من النَّاس

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لا أنَّه منافقٌ في الإسلامِ فيظهره وهو يبطنُ الكفر ولم يُرِد النَّبِيُّ ﷺ بهذا أنه منافقٌ نفاقَ الكفار المخلدين في الدرك الأسفلِ من النارِ[١].

قال الخطابي: وهذا القول من رسول الله ﷺ إنما خرج على سبيل الإنذار للمرء المسلم، والتحذير له أن يعتاد هذه الخصالَ، شفقًا أن تُفضيَ به إلى النفاق[٢]. يعني النفاق العقدي.

قال ابن رجب: وحاصل الأمر أن النفاق الأصغر كلَّه يرجع إلى اختلاف السريرة والعلانية، قالَه الحسن. وقال الحسن أيضا: من النِّفاق اختلافُ القلب واللسان، واختلافُ السر والعلانية، واختلافُ الدخول والخروج. وقالت طائفة من السلف: خشوعُ النِّفاق أن ترى الجسدَ خاشعًا، والقلبُ ليس بخاشع، وقد روي معنى ذلك عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وروي عنه أنه قال على المنبر: إن أخوف ما أخاف عليكم المنافقَ العليمَ، قالوا: كيف يكون المنافقُ عليمًا؟ قال: يتكلم بالحكمة، ويعمل بالجور، أو قال: المنكر. وسئل حذيفةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن المنافق، فقال: الذي يصفُ الإيمانَ ولا يعملُ به. وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قيل له: إنا ندخلُ على سلطاننا، فنقول لهم بخلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم، قال: كنا نعُدُّ هذا نفاقًا. وفي المسند عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إنكم لَتَكَلَّمُون كلامًا إِنْ كُنَّا لنعُدُّه على عهد رسول الله ﷺ النِّفاقَ، وفي رواية قال: إن كان الرجل لَيَتَكَلَّمُ بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ، فيصيرُ بها منافقًا،

(١) مسلم بشرح النووي (١/ ٣٢٣).
(٢) أعلام الحديث شرح صحيح البخاري (١/ ١٦٥).

وإني لأسمعها من أحدكم في اليوم في المجلس عشر مرارٍ. قال بلالُ بن سعد: المنافق يقولُ ما يعرفُ، ويعملُ ما ينكرُ. ومن هنا كان الصحابةُ يخافون النِّفاقَ على أنفسهم، وكان عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يسأل حذيفةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن نفسه. وسُئل أبو رجاء العطاردي: هل أدركتَ مَن أدركتَ مِن أصحاب رسول الله ﷺ يخشون النِّفاقَ؟ فقال: نعم إني أدركتُ منهم بحمد الله صدرًا حسنًا، نعم شديدًا، نعم شديدًا. وقال البخاري في صحيحه: وقال ابن أبي مليكة: أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلُّهم يخاف النفاقَ على نفسه. ويُذكَر عن الحسن قال: ما خافه إلا مؤمنٌ، ولا أَمِنَهُ إلا منافقٌ[1].

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٩٠، ٤٩١).

المرض الثاني عشر
الاغترار بالله تعالى

الغرور في اللغة: الغَرور (بالفتح): الشيطان، وقرىء بضم الغين، وهي الأباطيل ...، وأما الغُرور فما اغتر به من متاع الدنيا... وفي قولهم: غرَّ فلان فلانًا: قال بعضهم عرَّضه للهلكة ،والبوار، ويقال: غرَّ فلان فلانًا معناه: نقصه من الغِرار، وهو النقصان[١].

وفي الاصطلاح: هو التفريطُ في حق الله، وتركُ أوامره، والانغماسُ في المعاصي[٢].

قال ابن أبي العز: أما إذا كان الرجل متماديًا في التفريط والخطايا، يرجو رحمةُ الله بلا عمل، فهذا هو الغرورُ والتمني والرجاءُ الكاذبُ[٣].

هذا الاغترار الذي يؤدي بالعبد إلى الانغماسِ في المعاصي ثم تراه يقول: «الله غفورٌ رحيمٌ» ويعتقدُ أنَّ هذا من بابِ حسنِ الظنِّ بالله، وهناك فارقٌ كبيرٌ بين حسنِ الظنِّ بالله والاغترار بالله.

فإن حسن الظنِّ إن عمل العمل وحثَّ عليه وساق إليه فهو صحيحٌ، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرورٌ، وحسنُ الظنِّ هو الرجاء، فمن كان رجاؤُه هاديًا له إلى طاعة وزاجرًا له عن معصية فهو رجاءٌ

---

(١) انظر: تهذيب اللغة لابن الأزهري (٨/ ١٩) ولسان العرب (٥/ ١٨).
(٢) انظر: الداء والدواء لابن القيم (٥٢) وما بعدها.
(٣) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص: ٣١٢).

صحيحٌ، ومن كانت بطالتُه رجاءً ورجاؤُه بطالةً وتفريطًا فهو المغرورُ.

ولو أنَّ رجلاً كانت له أرضٌ يُؤَمّل أن يعود عليه من مغلِّها ما ينفعه فأهملها ولم يبذرها ولم يحرثها وحسنَ ظنُّه بأنه يأتي مغلُّها ما يأتي من حرث وبذر وسقي وتعاهد الأرض لَعَدَّهُ النَّاس من أسفه السفهاء.

وكذلك لو حسنَ ظنُّه وقوِيَ رجاؤُه بأن يَجِيَهُ ولدٌ من غيرِ جماعٍ أو يصيرُ أعلم أهلِ زمانه من غيرِ طلبٍ للعلمِ وحرصٍ تامٍ عليه وأمثال ذلك، فكذلك مَن حسنَ ظنُّه وقوى رجاؤُه في الفوز بالدرجات العلى والنعيم المقيمِ من غير تقرُّبٍ إلى الله تعالى بامتثال أوامرِه واجتنابِ نواهيه وبالله التوفيق.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ [البقرة]، فتأمل كيف جعلَ رجاءَهم إتيانَهم بهذِه الطاعات؟؟

وقال المغرورون: إن المفرطين المضيِّعين لحقوق الله المعطلين لأوامره، الباغين على عبادِه المتجرئين على محارمه أولئك يرجون رحمة الله[1].

مما تقدَّم يتبينُ لنا أنَّ الاغترار بالله تعالى: هو التفريطُ في حق الله وتعطيلُ أوامرِه.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٣٣﴾ [لقمان].

---

(١) انظر: الجواب الكافي (ص: ٥٢).

«أي لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدَّار الآخرة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ يعني الشيطان فإنه يغرُّ ابن آدمَ ويَعِدُهُ ويُمَنِّيهِ وليس من ذلك شيءٌ بل كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء]»[1].

وقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه].

وقال سبحانه وتعالى:﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

من تأملَ آيات الكتابِ وجدَ أن التوبة والإنابة والرجوع إلى الله بفعلِ الطاعات، وترك المنكرات، شرطٌ لحصول الرحمة والعفو والمغفرة، وهذا ظاهرٌ في الآيات التي ذَكرناها آنفًا، وفي غيرِها من الآيات التي تدلُّ على نفسِ المعنى، وهي كثيرةٌ جدًا.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٣).

الغرور بالأماني

القرآن من أوله إلى آخره صريحٌ في ترتيب الجزاء بالخير والشر على الأعمال والأقوال، فليحذر العاقلُ من مغالطة نفسه، فكل إنسان يعرف أن ارتكابَ المعاصي يُغضِبُ الله، فلا تغالطك نفسَك بالاتِّكال على عفو الله ومغفرته.

فيَا مغرورًا بالأماني لُعِن إبليسُ وأهبطَ من منزل العزِّ بترك سجدة واحدة أُمرَ بِها، وأُخرج آدمُ من الجنة بلقمةٍ تناولها، وحُجب القاتلُ عنها بعد أن رآها عيانًا بملء كفٍ من دم، وأُمر بقتلِ الزَّاني أشنع القتلات بإيلاج[١] قدر الأنملة فيما لا يحلُّ، وأُمر بإيساعِ الظّهرِ سياطًا بكلمةِ قذف أو بقطرة من مسكرٍ وأبان عضوًا من أعضائك بثلاثةِ دراهم[٢] فلا تَأْمَنْهُ أن يحبسك في النَّارِ بمعصية واحدة من معاصيه ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس]، وَدَخلت امرأةٌ النارَ في هِرَّةٍ[٣] وإنَّ الرجلَ ليتكلَّمُ الكلمةَ ولا يُلقي لها بالًا يَهوي بِها في النَّارِ أبعدَ ما بين المشرقِ والمغربِ[٤]...

---

(١) الجماع.

(٢) يشير إلى حديث: «تقطع اليد في ربع دينار فصاعدًا»، وكان ربع دينار يومئذ ثلاثة دراهم والدينار اثني عشر درهمًا، أخرجه البخاري (٦٧٨٩)، ومسلم (١٦٨٤).

(٣) أخرج البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ، قال: «دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ».

(٤) أخرج البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ، قال: «إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ، مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا، يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا =

كيفَ الفلاحُ بين إيمان ناقصٍ وأملٍ زائد، ومرضٍ لا طبيبَ له ولا عائدَ، وهوى مستيقظٍ وعقلٍ راقد ساهٍ في غمرته، عَمَّ[1] في سكرته، سابحًا في لجة جهله، مستوحشًا من ربِّه، مستأنسًا بخلقه، ذِكرُ النَّاسِ فاكهتُه وقُوتُه، وذكُر الله حبسُه وموتُه، لله منه جزءٌ يسيرٌ من ظاهرِ وقلبِه ويقينُه لغيرِه»[2].

من صور الغرور بالأماني:

١- الإصرارُ على المعاصي والذنوب والاتِّكالُ على الاستغفار:

يقول: أفعلُ كذا وكذا، ثم أَستغفرُ الله، أو أقولُ: سبحان الله وبحمده مائة مرة، فيغفر الله لي جميع ذنوبي، كما صحَّ عن النبي ﷺ، أنه قال: «**مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ**»[3]، وغيرها من النصوص التي تدل على سعة عفو الله ومغفرته.

وهذا الإنسان تعلَّق بنصوص الرجاء واتَّكَلَ عليها، وإذا عُوقب على الخطايا والانهماك فيها، سرَدَ لك كلَّ ما يحفظُهُ عن سعة رحمة الله ومغفرته، وقد غَفَلَ أو تَغافَلَ عن صفات الله تعالى، فكما أنه غفورٌ رحيمٌ، فإن عذابه عذابٌ أليمٌ، ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ

=

بَيْنَ المَشْرِقِ».

(١) أي مترددًا متحيرًا.

(٢) انظر الفوائد لابن القيم (ص: ٦٣).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر].

٢- الاغترار والتعلق بمسألة الجبر:

يعتقد أنه مسيرٌ، وأنه لا اختيارَ له ولا فعلَ له، إنما هو مجبورٌ على فعل المعاصي، وهذا من أعظم صور الضلال، فالعبدُ له مشيئةٌ وإرادةٌ واختيارٌ، فلا يُجْبَرْ على معصية ولا طاعة، مع الإيمان بأنَّ مشيئة العبد محاطةٌ بمشيئة الرب جل وعلا، فلا يكون شيءٌ في الكون إلا أن يشاء اللهُ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير].

فاحذرْ هذا الفكرَ الضالَ -فكر الجَبْر-، بأن تعتقد -ظلمًا وبهتانًا-، أن الإنسان مجبرٌ على فعل المعاصي، ولْيَسْأَلْ نفسَه لو كان الإنسان مُجبرًا على فعل المعاصي، فلماذا يحاسبُه الله؟، ولماذا جعل الجنة للطائعين، والنار للمجرمين؟! أيعاقبُه على شيءٍ ليس له فيه اختيارٌ؟! هذا من المحال المنافي لكمال عدل الله جل في علاه.

٣- ومن ذلك أن يغترَّ بمسألة الإرجاء:

أي يعتقد أن الإيمانَ مجرد التصديق، والأعمال ليست من الإيمان.

٤- ومن ذلك أن يغترَّ بأن الله عز وجل غنيٌّ عن عذابه:

وأن عذابه لا يزيد في ملك الله شيئا، ورحمته له لا تُنقِص من ملكه شيئًا.

فيقول: أنا متعلقٌ برحمته، وهو سبحانه أغنى الأغنياء، ولو أن فقيرًا مسكينًا مضطرًا إلى شربة ماء -عند من في داره شطُ نهرٍ يجري فيه الماء- لما

منعه منها، فالله أكرمُ وأوسعُ، فالمغفرة لا تُنقصه شيئًا، والعقوبةُ لا تُزيد في ملكه شيئًا.

هذا حقٌّ أُرِيدَ به باطلٌ، لأن الله خلق الجنَّ والإنس للعبادة، ومن كمال عدله ألا يساويَ المجرمين والعصاة بالمؤمنين الطائعين.

٥- ومن الناس من يغتر بفهم فاسد فهمه من نصوص القرآن والسنة:

فيتَّكِل على ذلك، كاتِّكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى]، قالوا: والرسولُ ﷺ لا يرضى أن يكون في النار أحدٌ من أمته.

وهذا من أقبح الجهل، وأبْيَنِ الكذب عليه، فإنه يَرْضَى بما يَرْضَى به ربُّه عز وجل.

والله تعالى يُرضِيه تعذيبُ الظلمة والفسقة والخونة والمصرين على الكبائر، فحاشَا برسول الله ﷺ ألَّا يَرْضَى بما يَرْضَى به ربُّه تبارك وتعالى.

ومثال آخر: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ [الإنفطار]، فيقول: كرمه، وأنه لقن الحجة، والجواب عندما يسأله ربُّه عن ذنوبه ومعاصيه يوم القيامة.

وهذا من جهله بفهم نصوص القرآن، ومن غرور الشيطان.

معنى الآية كما قال أهل التفسير: يا أيها الإنسان أيُّ شيء خدعك وجرَّأَكَ على عصيان ربك الكريم والانحراف عن طريق الهداية الذي أراده لك؟، وذِكْرُ الكريم للمبالغة في المنع عن الاغترار، فالاستفهامُ والسؤالُ في

الآية بمعنى المنع، لأن من معاني الكريم: العظيمُ الجليلُ، السيدُ المطاعُ، الكاملُ في صفاته وأفعاله.

فوضع هذا المغترُّ "الغرورَ" في غير موضعه، واغترَّ بما لا ينبغي الاغترارُ به[١].

٦- ومنهم من اغترَّ بالاعتماد على نوافل الأعمال في محو الذنوب:

كصوم يوم عرفة، وصوم يوم عاشوراء الذي يُكَفِّرُ ذنوبَ العام كلَّها، ويبقى صومُ عرفة زيادةً في الأجر، لأنه يُكَفِّرُ السنة الماضية والقابلة.

ولم يَدْرِ هذا المغترُّ أن صومَ رمضان، والصلوات الخمس، أعظمُ وأجلُّ من صيام يوم عرفة ويومِ عاشوراء، ومع ذلك هي تُكَفِّرُ ما بينها إذا اجتُنِبَت الكبائرُ، فكيف يُكَفِّرُ صومُ يوم تطوعٍ كلَّ كبيرة عملها العبدُ، وهو مُصِرٌّ عليها غيرُ تائبٍ منها؟![٢].

قال رسول الله ﷺ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ**»[٣].

«ويالله العجب، فليتَ العبدُ إذا أتى بهذه المكفرات كلِّها أن تُكفر عنه سيئاته باجتماع بعضها إلى بعض، والتكفير بهذه مشروطٌ بشروط، موقوفٌ على انتفاء الموانع كلِّها فحينئذ يقع التكفير، وأما عملٌ شَمِلَته الغفلة أو

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٠/ ١٠٦)، وتفسير ابن كثير (١٤/ ٣١٩) ومحاسن التأويل (٧/ ٢٥٧).

(٢) ملتقط من الداء والدواء (ص: ٢٧: ٣٠) بتصرف وزيادة.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لأكثره، وفَقدَ الإخلاص الذي هو روحُه، ولم يوفِّ حقه، ولم يُقَدِّرْهُ حق قَدْرِه، فأي شيء يُكفِّر هذا؟ فإنْ وَثِقَ العبد من عمله بأنه وفَّاه حقه الذي ينبغي له ظاهرًا وباطنًا، ولم يَعْرِضْ له مانع يمنع تفكيره ولا مبطل يُحبِطُه ـ من عُجْبٍ أو رؤية نفسه فيه أو يَمُنُّ به أو يطلب من العباد تعظيمه به أو يستشرف بقلبه لمن يُعَظِّمُه عليه أو يعادي من لا يُعَظِّمُه عليه ويرى أنه قد بخسه حقه وأنه قد استهان بحرمته ـ فهذا أي شيء يُكفِّر؟»[1].

هذه بعضُ الأماني التي يغترُّ بها العبد بسبب الجهلِ بالدين، وعدمِ الإقبال على تعلُّمِ العلم الشرعي، فيقع في المهالك من حيث يدري أو لا يدري.

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ١٠).

المرض الثالث عشر
الأمن من مكر الله

المَكْرُ في اللغة: الاحتيالُ والخديعةُ. وقد مَكَرَ به يَمْكُرُ فهو ماكِرٌ ومَكَّارٌ[١].

المكر في حق الله تعالى: المكر من الله استدراجٌ، لا على معنى مَكْر المخلوقين، قاله الفراءُ[٢].

وقال الزجاج: المكر من الخلق خبثٌ وخداعٌ، ومن الله عز وجل: المجازاة ... ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ [آل عمران]، لأن مَكْرَه مجازاةٌ ونصرٌ للمؤمنين[٣].

وقال القرطبيُّ: المكرُ من الله هو جزاؤُهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون[٤].

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩﴾ [الأعراف].

قالَ الحسنُ البصريُّ: المؤمنُ يعمل بالطاعات وهو مشفق وجلٌ

---

(١) انظر: الصحاح تاج اللغة (٢/ ٨١٩)، ومجمل اللغة لابن فارس (ص: ٨٣٨)، واللسان (٥/ ١٨٣).
(٢) انظر: الأسماء والصفات للبيهقي (ص: ٦٠٩).
(٣) انظر: زاد المسير لابن الجوزي (١/ ٣٩٥).
(٤) انظر: أحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٣٧٩).

خائف، والفاجرُ يعمل بالمعاصي وهو آمنٌ[١].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾ [الأنعام].

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: أعرضوا عنه وتناسوه وجعلُوه وراء ظهورهم ﴿فَتَحْنَا عليهمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: فتحنا عليهم أبواب الرزق من كلِّ ما يختارون، وهذا استدراجٌ منه تعالى وإملاءٌ لهم عياذًا بالله من مكرِه، ولهذا قال: ﴿حتى إذا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ أي: على غفلة ﴿فَإذا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير.

وعن عقبةَ بن عامرٍ عن النبي ﷺ قال: «**إذا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدنيا على مَعَاصيهِ مَا يُحِبُّ فَإنما هو اسْتِدْرَاجٌ**»[٢] ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ... الآية﴾[٣] أي أنَّ الله يستدرجهم بالنِّعمِ إذا عصوه ويُملِي لهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر[٤].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٥٢).

(٢) حسن: أخرجه أحمد في المسند (١٧٣١١)، وفي الزهد (٦٣)، والطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٣٣٠)، والبيهقي في الآداب (٨١٩)، وحسنه شعيب الأرناؤط في المسند (١٧٣١١).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٩).

(٤) انظر: فتح المجيد (٣٩).

قال بعض السلف: رُبَّ مُستَدْرَج بنعمِ الله عليه وهو لا يعلم ورُبَّ مغرورٍ بستر الله عليه وهو لا يعلمُ ورُبَّ مفتون بثناء النَّاس عليه وهو لا يعلم[١].

الفرق بين الاغترار بالله تعالى والأمن من مكر الله:

أنَّ الأول يقترفُ أنواع الذُّنُوبِ والمعاصي الظاهرة والباطنة ويتعلق بنصوصِ الرجاء التي جاءت في الكتابِ والسنة كقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة].

وقول رسول الله ﷺ: «**مَنْ كان آخِرُ كَلاَمِهِ لاَ إِلَهَ إلا الله دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[٢] وما أشبه ذلك من الأدلة الدالة على رحمة الله وقد تقدَّم ذكرُ بعضٍ منها في معرض الكلام عن هذا المرض مع بيان حقيقة معناها.

أمَّـــا الأمنُ من مكـــرِ الله تعالى فسببه فساد التصور، بمعنى أنَّهُ يَعصي الله ولا تقع عليه العقوبات الدنيوية وقد يكون آكلًا للربا قاطعًا للرحمِ عاقًا لوالديه، يخوضُ في أعراضِ الخلق، ويمشي بين النَّاسِ بالنميمة، وقد تكون امرأة متبرجة عاصية لله ورسوله ﷺ، ومع ذلك فالله يرزقُهُ المال والصحة والأولاد وصنوفًا من مطالبِه ورغائبه، فيفرح بذلك ويتصور أنَّ الله رضي عنه إذ لم يعاقبْه مع إصراره على المعاصي، بل يعتقدُ أنَّهُ

---

(١) الداء والدواء لابن القيم (٤٩).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٣١١٦)، وأحمد (٢٢٠٣٤)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣١١٦).

أفضلُ من العبد الطائعِ لله القائم على طاعته الحافظ لأمرِه ونهيه، فقد يبتلى هذا الطائعُ بمرض أو فقر أو حرمان الذرية وإلى غير ذلك من أنواعِ الابتلاء ويصبر ولا يصدُّهُ ذلك عن الطَّاعة، فيتصورُ العاصي أنَّهُ أفضل منه إذْ لم يُبْتَلَ مثْله، وهذا بعينه الجهلُ بسنن الله تعالى وتركُ تدبر كتابه وسنة نبيه ﷺ.

فالابتلاءُ سنةٌ ماضيةٌ ولن تتبدل فهي تمحيصٌ للمؤمنِ، أو رفع درجات في الجنة، أو اختبار لإيمان العبد، وعقوبة للفاجرِ والكافرِ.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت].

«أي: أَحَسِبَ الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم وأظهروا القول بالإيمان أنَّهم يُتركوُن بذلك غيرَ مُمْتَحنين بل يَمتحنهم الله بضروبِ المحنِ حتى يبلو صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم، لتمييز المخلصِ من غير المخلق كما قال ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٨٦﴾ [آل عمران]، وكقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٢﴾ [آل عمران]، وكقولِه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ

قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة]، إلى أن ذكر قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَآ﴾ [العنكبوت: ٤]، أي يفوتونا فلا نقدر على مجازاتهم بمساوئ أعمالهم: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام]، أي بئس الذي يحكمونه حكمهم»[(١)].

والآيات الدالة على سننِ الابتلاء- وأنها ماضيةٌ في أهلِ الإيمان- كثيرةٌ جدًّا- لا يتسعُ المقامُ لسردها- فضلاً عما جاء في السنة المطهرة لتأكيد هذا المعنى، فقد أخرج الترمذيُّ بإسناد صحيح لغيرِه من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قلتُ: يَا رسَولَ الله أيُّ النَّاسِ أشدُ بلاءً؟ قال: «**الأنبيَاءُ ثم الأمْثَلُ فَالأمْثَلُ فَيُبتَلى الرَّجُلُ على حَسَب دِينهِ فَإن كان دِينُهُ صُلبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ وَإن كان في دِينِه رِقَّةٌ ابْتُلِيَ على حَسَب دِينهِ فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بَالْعَبْدِ حتى يَتْرُكَهُ يَمشي عَلى الأرض مَا عليه خَطيئةٌ**»[(٢)].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخلتُ على النبي ﷺ وَهوَ يوعَك فوضعتُ يديَّ عليه فوجدتُ حرَّه بين يديَّ فوقَ اللحافِ فقلت: يا رسُولَ الله! ما أشدّهَا عليكَ قال: «**إنَّا كَذلك يُضَعَّفُ لنَا الْبَلاءُ وَيُضَعَّفُ لنَا الأَجْرُ**» قلت: يا رسُولَ الله أيُّ النَّاسِ أشدُ بلاءً قال «**الْأنبِيَاءُ**» قلت: يا رسول الله ثم مَن؟ قال: «**ثم الصَّالِحونَ إن كان أَحَدُهُمْ لَيُبتَلَى بِالْفَقْرِ حتى مَا**

---

(١) انظر: محاسن التأويل (٥/ ٤٣٩) وما بعدها.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وأحمد (١٤٨١).
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. انتهى.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٤/ ٢٢١).

يَجِدُ أَحَدُهُمْ إلا الْعَبَاءَةَ يُحَوِّيهَا وَإن كان أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلاءِ كما يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بَالرَّخَاء»[١].

وقال ﷺ: «إِنَّ اللهَ عز وجل لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنْ الدنيا وهو يُحِبُّهُ كما تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ مِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ تَخَافُونَهُ عليه»[٢].

وفي رواية: «إِنَّ اللهَ عز وجل إذا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ فمن صَبَرَ فَله الصَّبْرُ وَمَنْ جَزِعَ فَله الْجَزَعُ»[٣].

وقال رسول الله ﷺ: «مَا يَزَالُ الْبَلاَءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حتى يَلْقَىَ اللهَ وَمَا عليه خَطِيئَةٌ»[٤].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥١٠)، وابن ماجه (٤٠٢٤)، وأحمد (١١٨٩٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦٥٣٣)، وفي الشعب (٩٣١٧).
قال السندي في حاشيته على سنن ابن ماجه (٢/ ٤٩٠): وفي الزوائد إسناده صحيح رجاله ثقات. انتهى
وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٤٠٢٤).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في المسند (٢٣٦٢٢، ٢٣٦٢٧، ٢٣٦٣٢)، وفي الزهد (٥٧)، والبيهقي في الشعب (٩٩٦٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٢٣٨).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٢٣٦٢٣)، والبيهقي في الشعب (٩٣٢٧)، وابن شاهين في الترغيب في فضائل الأعمال (٢٧٥).
قال ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ١١٣): رواته ثقات إلا أن محمود بن لبيد اختلف في سماعه من النبي ﷺ وقد رآه وهو صغير. انتهى.
وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١/ ٣٥١).

(٤) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٩٩)، وأحمد (٧٨٥٩، ٩٨١١)، وابن أبي شيبة في =

مَما تقدَّم يتبيَّن لنا أنَّ رغد العيشِ وكثرة الأموال والأولاد ليس دليلاً على حبِّ الله تعالى العبد ورضاه عنه، وأيضًا فإنَّ نقص الأموال والأولاد وضيق العيش ليس دليلًا على غضبِ الله على العبد، بل الأصل أنَّ المؤمن مُبتلىً كما قدَّمنا الأدلة على ذلك من كتابِ الله وسنة نبيِّنا ﷺ قال الشاعر:

إلهي: لَـــولا محبَّـــتُكَ للغفـرانِ مَا أمهلتَ مَـن يُبَـارزُكَ بالعِصـيَانِ

=

المصنف (١٠٨١١)، وابن حبان (٢٩١٣)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٩٧).

قال الترمذي (٢٣٩٩): هذا حديث حسن صحيح.

وقال الحاكم (١/ ٤٩٧): هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٣٩٩)، وفي الصحيحة (٥/ ٣٤٩)، وفي صحيح الأدب المفرد (ص: ١٨٥).

المرض الرابع عشر
القنوط من رحمة الله

القنوط في اللغة: هو الإياسُ من الخير، ويقال: شرُّ الناسِ الذين يُقَنِّطون الناسَ من رحمة الله أي: يُؤَيِّسونَهم[١].

وفي الاصطلاح: القنوطُ من رحمة الله هو اليأس منه سبحانه وتعالى أن يتوب عليه، وأن يغفر له ويرحمَه، وهو يقابلُ الأمن من مكرِ الله وكلاهما من أمراضِ القلوبِ، وهو قريب من المعنى في اللغة، كما هو ظاهر، وستأتي النصوصُ الدالةُ على هذا المعنى.

وقد أجمع العلماء على تحريم اليأس والقنوط من رحمة الله، ومن اليأس والقنوط ما يُخرِج صاحبه من الملة، ومنه ما لا يُخرِج صاحبه من الملة، وإنما هو من الكبائر، بل أشدُّ تحريمًا من الكبائر الظاهرة، كالزنا وشرب الخمر وغير ذلك، فلا يجوز للمسلم أن يتشبَّه بصفات الكافرين والظالمين الذين يستبعدون رحمةَ الله[٢].

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف]، فدلَّت الآيةُ على أنَّ اليأسَ من روحِ الله- أي من رحمة الله- من صفات الكافرين.

وقال تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (٩/ ٢٥)، والمحيط في اللغة (١/ ٤٥٧)، واللسان (٧/ ٣٨٦)، وتاج العروس (٢٠/ ٥٧).

(٢) انظر: جامع البيان (١٦/ ٢٣٢)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٦)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٥٢)، والبغوي (٤/ ٢٧١)، والسعدي (ص: ٤٠٤).

[الحجر].

وعن ابنِ مسعودٍ قال: «أَكْبَرُ الكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بالله وَالأَمَنُ مِنْ مكْرِ الله والقنوطُ مِنْ رَحْمَةِ الله وَاليَأسُ مِنْ رَوحِ الله»(١).

القنوط من رحمة الله يجعل العبد يقطع الرجاءَ والأملَ في الله أن يغفر له فيفتح بذلك بابًا للشيطان ويمهد له الطريق للدخول عليه فلا يَبْرَحُ يتركه حتى يحول بينه وبين التوبة، يقولُ له أنت لا تصلحُ للتوبة أنت تبتَ قبل ذلك مرات ثم رجعتَ لا فائدة منك ولا أَمَلَ فيك لن يغفرَ الله لك وهكذا، لا يزالُ بالعبد حتى يصلَ بِه إلى القنوط من رحمته سبحانه وتعالى، وهذا من سوء الظَّنِ بالله إذْ يعتقد أنَّ ذنوبه أكبر من أن يغفرها الله ويغفل عن قول أرحم الراحمين الكريم المنان سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر].

«أي لا تيأسوا منها فتلقُوا بأيديكم إلى التهلكة وتقولوا قد كثرت ذنوبُنا وتراكمت عيوبُنا فليس لها طريقٌ يزيلها ولا سبيلٌ يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مصرَّين على العصيان متزوِّدينَ ما يغضبُ عليكم الرحمنَ، ولكن اعرفوُا ربَّكُم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده، واعلموا

(١) صحيح موقوف: أخرجه عبد الرزاق في التفسير(١٩٧٠١)، والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ١٥٦)، والبيهقي في الشعب (١٠١٩).
وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤١٦): هو صحيح موقوف على ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَنَّهُ يغفرُ الذُّنُوبَ جميعًا من الشِّرْكِ والقتلِ والزِّنَا والرِّبَا والظلم وغير ذلك من الذُّنُوبِ الكبار والصغار ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ... لكن لمغفرته ورحمته ونيلها أسبابٌ إن لم يأت بها العبدُ فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة وأعظمُها وأجلُّها بل لا سببَ لها غيرُه: الإنابةُ [١] إلى الله تعالى بالتوبة النصوح والدعاء والتضرع والتألُّه والتعبد» [٢].

عن أبي سعيدٍ الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أَنَّهُ قال: «**كان فيمَنْ كان قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَل تِسْعَةً وَتسعِينَ نَفْسًا فَسأَلَ عن أَعْلَم أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ على رَاهِب فَأَتَاهُ فقال: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعةً وتسعينَ نَفْسًا فَهَلْ له مِنْ تَوْبَةٍ؟ فقال: لاَ؛ فَقَتَله فكمَّلَ بِهِ مِائةً ثم سَأل عن أَعْلَم أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلى رَجُلٍ عَالِم فَقال إِنَّه قَتَل مِائةَ نَفْسٍ فَهَلْ له مِنْ تَوْبةٍ؟ فَقال: نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بينهُ وَبين التَّوْبَةِ انطَلِقْ، إلى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُناسًا يَعْبُدُونَ الله فاعْبُدْ اللهَ مَعَهُمْ ولا تَرْجع إلى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَانطَلَقَ حتى إذا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاختصَمَتْ فيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكةُ الْعَذَاب فَقَالتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمةِ: جَاءَ تَائبًا مُقبلًا بِقلْبِهِ إلى الله، وقالتْ مَلاَئكةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورةِ آدَمي فَجَعلُوهُ بَيْنهُمْ، فَقال: قِيسُوا مَا بين الأَرْضَيْنِ فَإِلى أَيتهمَا كان أَدْنَى فهو له، فقَاسُوهُ**

---

(١) الإنابة: الرجوع إلى الله بالتوبة، أي لا سبب للرحمة والمغفرة إلا التوبة.

(٢) انظر: تفسير السعدي (٧٢٨).

فَوجَدُوهُ أدْنى إِلى الأرْضِ التي أَرَادَ فقَبضَتْهُ مَلائكَةُ الرَّحْمةِ»[(١)].

هذا الحديثُ من الأحاديث الدالة على سعة عفو الله ورحمته وجوده وكرمه، هذا العبدُ قتل مائة ولم يعملْ خيرًا قَطُّ -في الظاهر-، لكن بصدق النية وصدق العزم على التوبة -والصدقُ من أعمال القلوب- ودليلُ صدق النية أنه تحرك إلى أرض التوبة للعمل، فقبضتْهُ ملائكةُ الرَّحمة، فلا ينبغي لأحدٍ مهما بلغت ذنوبُهُ أن يَقْنَطَ من رحمة الله، لكن عليه بصحبة أهلِ الخير والصلاح والعلماء الربانيين والزهاد الورعين، وكلِّ من يأخذ بيده إلى مولاه سُبحانه وتعالى وعز وجل.

الترهيبُ من تقنيط عباد الله من رَحمَةِ الله:

فلا ينبغي لأحدٍ أن يُقَنِّطَ أحدًا من رحمة الله ولا يجوز لبشرٍ أن يحكم على أحدٍ أنَّهُ من أهل الجنة أو أنَّهُ من أهل النَّار؛ لأنَّ ذلك منازعةٌ لله في ملكه وحكمه وهو وحده مالكُ الملك له الخلق وله الأمر ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، فإن عَذَّبَ أهل السموات والأرض عذَّبَهُم بعدله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف]، وإن رَحِمَ من في السموات ومن في الأرض فبفضله ومحضِ جوده وكرمه.

فيأيُها المقَنِّطُ غيرَه لا تتسرعْ في الحكمِ على عباد الله فأنت لا تدري ما قدرُك عند الله، وقد جاء الحديثُ القدسيُّ- الذي رواهُ النَّبِيُّ ﷺ عن ربِّ العزة يشير إلى هذا المعنى، قال ﷺ: «**إنَّ رَجلًا قال: وَالله لاَ يَغْفِرُ الله لِفُلانٍ**

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٣٧٦٦)، واللفظ له.

وَإِنَّ اللهَ تعالى قال: مَنْ ذَا الذي يَتألَّى[١] عليَّ ألا أَغْفِر لِفُلان، فَإِنِّي قَدْ غَفَرتُ لِفُلَانٍ وَأَحْبطْتُ عَمَلَكَ»[٢].

وعن رسول الله ﷺ قال: «كان رَجُلاَنِ في بَني إِسْرَائيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ فَكان أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ وَالآخَرُ مُجْتَهِدٌ في الْعِبَادَةِ فَكان لاَ يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ على الذَّنْبِ فَيقُولُ أَقْصِرْ فَوَجَدَهُ يَوْمًا على ذَنْبٍ فَقال له: أَقْصِرْ فَقال: خَلِّنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقال والله لاَ يَغفِرُ الله لَكَ أَوْ لاَ يُدْخِلُكَ الله الْجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا فَاجْتَمَعَا عند رَبِّ الْعَالمينَ فَقالَ لِهَذا الْمُجْتَهِد: أَكُنْتَ بي عالمًا؟ أَوْ كُنْتَ على مَا في يَدِي قَادِرًا؟ وقال لِلمُذْنِب: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي وقال لِلآخَرِ: اذْهَبُوا بِه إِلى النَّار»[٣].

هذان الحديثان فيهما من التَّرهيبِ ما يدعُو كلَّ مُقَنِّطٍ أن يَكُفَّ عن تقنيط خلق اللهِ من رحمة اللهِ تعالى.

---

(١) يَتَأَلَّى: يحلف، والأَلِيَّةُ اليمن- شرح مسلم (٨/ ٤٢٢).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٢١)، من حديث جندب بن سفيان البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٩٠١)، وأحمد (٨٢٩٢، ٨٧٤٩)، وابن حبان (٥٧١٢)، والبيهقي في الشعب (٦٢٦٢).
وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٩٠١)، وفي التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٥٦٨٢).

المرض الخامس عشر
التسويف بالتوبة

التسويف في اللغة: التأخيرُ، من قولهم: سَوْفَ أَفْعَلُ كذا...، وفلانٌ يقتاتُ السَوْفَ، أي يعيش بالأماني والتَسْويفُ: المَطْلُ. وسافَ يسوفُ أي هَلَكَ[١].

وفي الاصطلاح: تأجيل التوبة.

«كثرة الذُّنُوبِ تُضْعف القلب عن إرادته فتَقْوَي إرادةُ المعصية وتَضْعُف إرادةُ التَّوبة شيئًا فشيئًا، إلى أن تنسلخ من قلبِه إرادةُ التوبة بالكلية، فلو مات نصفهُ ما تاب إلى الله، فيأتي من الاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بشيءٍ كثيرٍ وقلبُهُ معقود بالمعصية، مُصِرٌّ عليها، عازمٌ على مواقعتها متى أمكنه، وهذا من أعظمِ الأمراضِ وأقربها إلى الهلاك»[٢].

«**التوبة**: هي رجوعُ العبد إلى الله ومفارقتُه لصراط المغضوبِ عليهم والضالين، وذلك لا يحصلُ إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم ولا تحصل هدايتُه إلا بإعانته وتوحيده.. فإنَّ الهداية التامة إلى الصراط المستقيمِ لا تكون مع الجهلِ بالذُّنُوبِ ولا مع الإصرارِ عليها، فإنَّ الأولَ جهلٌ ينافي معرفةَ الهدى، والثاني غيٌّ ينافي قصده وإرادته، فلذلك لا تصح التوبةُ إلا بعد معرفة الذنبِ والاعتراف به وطلبِ التخلصِ من سوء عواقبِه أولًا

---

(١) انظر: المحيط في اللغة (٢/ ٢٧٩)، والصحاح تاج اللغة (٤/ ١٣٧٨)، ومختار الصحاح (ص: ١٥٧).

(٢) انظر: الداء والدواء لابن القيم (٧٤).

وآخرًا بالاعتصام بالله.

فإنَّ العبد لو اعتصم بالله لما خرج عن هداية الطاعة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران]، فلو كملت عصمتُه بالله لم يخذله أبدًا، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج]، أي متى اعتصمتُم به تولَّاكُم ونصرَكُم على أنفسكم وعلى الشيطان، وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد، وعداوتهُما أضرُّ من عداوة العدو الخارجِ، فالنصرُ على هذا العدو أهمُّ، والعبد إليه أحوج، وكمالُ النصرة على العدو بحسبِ كمال الاعتصامِ بالله، ونقصُ هذا الاعتصام يُؤدي إلى الانخلاعِ من عصمة الله وهو حقيقة الخذلان، فما خَلَّى الله بينك وبين الذنبِ إلا بعد أن خذلك وخَلَّى بينك وبين نفسك، ولو عصمك ووفقك لما وجد الذنبُ إليك سبيلاً.

حقيقةُ التوبة: هي الندمُ على ما سلف منه في الماضي، والإقلاعُ عنه في الحال والعزمُ على ألا يعاوده في المستقبلِ.

ومن اتهام التوبة: طمأنينتُه ووثوقُه من نفسه بأنَّه قد تاب، حتى كأنَّه قد أُعطيَ منشورًا بالأمان فهذا من علامات التهمة.

ومن علاماتها: جمودُ العين واستمرارُ الغفلة وأن لا يستحدث بعد التوبة أعمالًا صالحةً لم تكن له قبل الخطيئة.

التوبة المقبولة الصحيحة لها علامات:

منها: أن يكون بعد التوبة خيرًا مما كان عليه قبلها.

ومنها: أَنَّهُ لا يزال الخوفُ مُصاحبًا له لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفُه مستمرٌ إلى أن يسمع قول الرُّسلِ لقبضِ روحه ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت]، فهناك يزولُ الخوف.

ومنها: انخلاعُ قلبِه وتقطعه ندمًا وخوفًا، وهذا على قدرِ عِظم الجناية وصغرِها وهذا تأويلُ ابن عيينةَ لقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة]، قال: تَقطعُها التوبةُ، ولا ريب أنَّ الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجبُ انصداع القلبِ وانخلاعه وهذا هو تقطعُه وهذا حقيقةُ التوبة لأنَّه يتقطَّعُ قلبُه حسرةً على ما فرط منه وخوفًا من سوء عاقبته... ومن لم يتقطَّعْ قلبُه في الدنيا على ما فرط حسرةً وخوفًا تقطَّعَ في الآخرةِ.

العبد إما تائبٌ وإما ظالمٌ:

قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور]، وهذه الآيةُ في سورة مدنية، خاطب الله بِها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبُوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم ثم عَلَّقَ الفلاح بالتوبة تعليقَ المسببِ بسببِه وأتى بأداة «لعلَّ» المشعرة بالترجي، إيذَانًا بأَنَّكُم إن تُبتُم كُنتُم على رجاء الفلاحِ فلا يرجُو

الفلاح إلا التَّائبون، جعلنا الله منهم.

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ [الحجرات]، قسَّمَ العباد إلى تائبٍ وظالمٍ ومن ثَمَّ ليس قسمٌ ثالثٌ، وأوقع اسم «الظالم» على من لم يتب ولا أظلمَ منه لجهله بربِّه وبحقِّه ويعيبِ نفسه وآفات أعماله.

الفطرة تَأْبَى القبائح:

أن يرى التائبُ قُبْحَ ما نهى الله عنه، وحُسْنَ ما أمر به وأنه كان مفسدًا حين ركب ما نهاه الله تعالى عنه مُفَوِّتًا لمصلحة، حين قَصَّر في تنفيذ ما أراده الله منه، وأنَّ الله تعالى ما نَهى إلا عن أمرٍ قبيح بالذات، وما أمر إلا بأمرِ حسنِ الذات، فإنَّ الله سبحانه فَطَرَ عباده على استحسان الصَّدق والعدل والعفة والإحسان ومقابلة النِّعمِ بالشُّكرِ، وفطرَهُم على استقباحِ أضدادها، ولهذا قيل لبعضِ الأعراب وقد أسلمَ لما عرفَ دعوتَه ﷺ عن أي شيء أسلمتَ؟ وما رأيتَ منه مما دلَّكَ على أنَّهُ رسولُ الله؟ قال: «ما أمر بشيء فقال العقلُ: لَيْتَهُ نَهىَ عنه ولا نهىَ عن شيء فقال العقلُ: لَيْتَهُ أمر بِه، ولا أَحلَّ شيئًا فقال العقلُ: لَيْتَهُ حرَّمَهُ ولا حَرَّمَ شيئًا فقال العقلُ: لَيْتَهُ أَبَاحَهُ» فانظر إلى هذا الأعرابي وصحة عقله وفطرته وقوة إيمانه واستدلاله على صحة دعوته بمطابقة أمرِه لكل ما حَسُن في العقل.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ١١٥﴾ [المؤمنون]، أي لغير شيء لا تؤمرون ولا تنهون ولا تثابون

ولا تعاقبون، والعبث قبيحٌ فدلَّ على أن قبح هذا مستقرٌ في الفِطَرِ والعقول، ولذلك أنكره عليهم إنكارًا مُنَبِّهً لهم على الرجوع إلى عقولهم وفِطَرهم..

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية]، فأنكَر سبحانه هذا الحسبان إنكارًا منبهً للعقلِ على قبحه وأنه سيِّئٌ، والحاكمُ به مُسِيءٌ ظالمٌ، وكذلك قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص]، وهذا استفهام إنكار يدلُّ على أن هذا قبيحٌ في نفسه مُنْكر تُنْكره العقول والفِطَر.

ولذلك اعترفوا في النار بأنهم لم يكونوا من أهلِ السَّمعِ والعقل وأنهم لو رجعوا إلى أسماعهم وعقولهم لعلموا حسن ما جاءت به الرسلُ وقبح مخالفتهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك]، وكم يقولُ لهم في كتابه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، فينبِههُم على ما في عقولهم وفطرِهم من الحسنِ والقبحِ ويحتجُّ عليهم بها ويخبرُ أنَّهُ أعطاهموها لينتفعُوا بها ويميزوا بها بين الحسنِ والقبحِ والحق والباطلِ.

من أحكام التوبة:

أنَّ المبادرة إلى التوبة من الذَّنبِ فرضٌ على الفور ولا يجوز تأخيرها فمتى أَخَّرَهَا عَصَى بالتأخيرِ فإذا تاب من الذنبِ بَقِي عليه توبةٌ أخرى، وهي توبته من تأخيرِ التوبة قبل أن تخطر هذه ببال التائبِ بل عنده أنَّهُ إذا تاب من الذنبِ لم يبق عليه شيء آخر وقد بَقِي عليه التوبةُ من تأخيرِ التوبة، ولا يُنْجِي من هذا إلا توبة عامة مما يعلم من ذنوبِه ومما لا يعلم[1]. انتهى.

اعلم أيُّهَا المسوفُ أن سرَّ هذا المرضِ هو الغفلةُ عن تدبرِ قوله تعالى ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ [لقمان: ٣٤]، فمتى أيقنَ العبدُ أنَّهُ لا يعلم كيف وأين ومتى يَنقَضِي الأجل بادر بالتوبة وحمد الله تعالى على أنَّهُ ما زال في عمرِه بقيةٌ للرجوع والإقلاعِ عن الذُّنُوب والمعاصي ظاهرًا وباطنًا، والله المستعان.

(١) انظر: تهذيب المدارج لابن القيم (ص: ١٢١)، وما بعدها بتصرف.

المرض السادس عشر
العجب

العُجْب في اللغة: العين والجيم والباء أصلان صحيحان، يدلُّ أحدهما على كِبرٍ واستكبارٍ للشيء، والآخر خِلْقَةٌ من خِلَقِ الحيوان.

فالأول العُجْبُ: وهو أن يتكبَّر الإنسان في نفسه، تقول: مُعْجَبٌ بنفسه...، وذلك إذا استكبَّرَ واستعظمَ...، والإنسان المعجب بنفسه أو بشيءٍ، وقد أُعْجِبَ فلانٌ بِنَفْسِهِ، فَهُوَ مُعْجَبٌ برأْيه وَبِنَفْسِهِ[١].

وفي الاصطلاح: العُجْبُ هو عبارة عن تصور استحقاق الشخص رتبةً لا يكون مستحقًا لها[٢].

وقيل: العُجْبُ هو: مسرةٌ بحصول أمر ، يُصاحبها تطاولٌ به على من لم يحصل له مثلُه بقول أو ما في حُكْمه من فعل أو ترك أو اعتقاد[٣].

كما أنَّ استقلال المعصية يُعدُّ من الذُّنُوبِ، أيضًا فإنَّ استكثار الطاعة ذنبٌ وهو ما يسمى بمرضِ العُجْبِ.

«والعارفُ من صَغُرَت حسناتُه في عينه وعَظُمَت ذنوبُهُ عنده، وكلما صَغُرَت الحسناتُ في عينك كَبُرَت عند الله، وكلَّما كَبُرَت وعَظُمَت في قلبِك قلَّت وصَغُرَت عند الله، وسيئاتُك بالعكسِ، ومن عَرِف الله وحقه وما

---

(١) انظر: مقاييس اللغة (٤/ ٢٤٣)، ولسان العرب (٦/ ١٩)، ومختار الصحاح (ص: ٢٠٠).

(٢) التعريفات للجرجاني (ص: ١٤٧).

(٣) البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار (٦/ ٤٩٠).

يَنبغي لعظمته من العبودية تلاشَت حسناتُه عنده، وصَغُرَت جدًّا في عينه، وعلم أنَّها ليست مما ينْجُو بها من عذابِه، وأنَّ الذي يليق بعزته ويصلحُ له من العبودية أمرٌ آخر...

لأنَّه كُلما استكثَر منها فُتحت له أبواب المعرفة بالله والقربِ منه فشاهد قلبُه من عظمته – سبحانه – وجلا له ما يستصغر معه جميع أعماله... وإذا كَثُرَت في عينه وعَظُمَت دلَّ على أنَّهُ محجوبٌ عن اللهِ غير عارف بِه وبِما ينبغي له... »[(١)].

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

قال مجاهدٌ: المعنى يَحُول بين المرء وعقله حتى لا يدري ما تصنع بنانُه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، أي: عقل، واختار الطبريُّ: أن يكون ذلك إخبارًا من الله تعالى أنَّهُ أملك لقلوب عباده منهم وأنَّه يَحول بينهم وبينها إذا شاء حتى لا يقدر ذو قلبٍ أن يدرك به شيئًا إلا بمشيئة الله عز وجل[(٢)].

عن شهرِ بن حوشبٍ قال: قلتُ لأم سلمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يا أمَّ المؤمنين ما كان أكثرُ دعاءِ رسولِ الله ﷺ أن كان عندك، قالت: كان أكثرُ دعائِه: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي على دِينِك، قَالت: فقلت: يا رسولَ الله ما أكثرَ

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص: ١٥٤) باختصار.
(٢) انظر: الكبائر للذهبي (٣٠٢).

دعاءَك يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلبِي على دِينِك، قال: «**يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إلا وَقَلْبُهُ بين أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله فمن شَاءَ أَقَامَ وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ**»(١).

«فإذا كانت الهداية معروفة، والاستقامة على مشيئته موقوفة، والعاقبة مغيبة، والإرادة غير مغالبة، فلا تُعجَبْ بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك وجميع قربك، فإن ذلك وإن كان من كسبِك فإنَّه من خلق ربك وفضله الدارِ عليك، فمهما افتخرتَ بذلك كنتَ مفتخرًا بمتاعِ غيرِك، ربما سلبه عنك، فعاد قلبُك من الخير أخلَى من جوف العير» (٢).

قال رجلٌ لأحد الزهاد: إني أكثرُ البكاء فقال: إنَّك إن تَضحَكْ وأنت مُقِرٌ بخطيئتك، خيرٌ من أن تبكي وأنت مدلٌ بعملك، فإن المدل لا يصعد عملُه فوق رأسه(٣).

قال شيخُ الإسلام: وقد يعجبُ بحاله فيظن حصول مراده فيُخذَلُ، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة]، إلى قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [التوبة].

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥٢٢)، وأحمد في المسند (٢٦٦٧٩)، باختلاف يسير. قال الترمذي: هذا حديث حسن. انتهى، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٥٢٢)، وفي السلسلة الصحيحة (٢٠٩١).

(٢) انظر: الكبائر (ص: ٣٠٣).

(٣) انظر: الفوائد (ص: ٩٥).

وكثيرًا ما يقرن النَّاسُ بين الرِّيَاءِ والعجبِ، فالرِّيَاءُ من بابِ الإشراك بالخلق، والعجبُ من بابِ الإشراك بالنفس وهذا حالُ المستكبر، فالمرائي لا يحقُق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، والمعجب لا يحقُق قوله ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فمن حققَ قوله ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، خرج عن الرِّيَاء ومن حقَّقَ قوله ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، خرج عن الإعجابِ، وفي الحديث المعروف: «**ثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مَطَاعٌ وَهَوى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ المرءِ بِنَفْسِهِ**»(١)(٢).

قال الفقيهُ: من أراد أن يكسر العُجْبَ فعليه بأربعة أشياء:

أولُها: أن يَرى التوفيق من الله، فإذا رأى التوفيق من الله تعالى فإنَّه يشتغل بالشكرِ ولا يُعجبُ بنفسه.

والثَّاني: أن ينظر إلى النعماء التي أنعم الله بِها عليه، فإذا نظر في نعمائه اشتغل بالشكرِ عليها، واستقلَّ عمله ولا يُعجبُ بِه.

والثالث: أن يخاف ألا يتقبل منه، فإذا اشتغلَ بخوف القبول لا يُعجبُ بنفسه.

---

(١) ضعيف: أخرجه البزار في مسنده (٦٤٩١، ٧٢٩٣)، والطبراني في المعجم الأوسط (٥٤٥٢)، والبيهقي في الشعب (٧٣١)، وضعف إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٩٥)، والعقيلي في الضعفاء الكبير (٣/ ٤٤٧)، والذهبي في ميزان الاعتدال (١/ ٦١١)، وابن حبان في المجروحين (١/ ٣٢١)، وضعف إسناده أيضًا الألباني في السلسلة الضعيفة (٤/ ٤١٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٧٧-٢٧٨).

والرابع: أن ينظر في ذنوبِه التي أذنَب قبل ذلك، فإذا خاف أن ترجح سيئاتُه على حسناته فقد كَسَرَ عُجبَه، وكيف يُعجبُ المرءُ بعمله ولا يدري ماذا يخرج من كتابِه يوم القيامة، وإِنَّما يتبين عجبُه وسرورهُ بعد قراءة الكتابِ.

وعن مسروقٍ – رحمه الله تعالى – قال : كَفى بالمرءِ علمًا أن يخشى اللهَ وكفى بالمرء جهلًا أن يُعجبَ بعملِه[1].

(١) انظر: تنبيه الغافلين (ص: ٣٨١).

المرض السابع عشر
الكبر

الكبر في اللغة: التَّكَبُّرُ والاستكبَارُ والتعظيمُ، والكبرُ العظمةُ، وكذلك الكبرياءُ[١].

وفي الاصطلاح: بَطَرُ الحق، أي: رَدُّهُ ورفضُهُ، وغَمْطُ النَّاس، أي: احتقارُهم، كما جاء في الحديث[٢].

فالكِبْرُ: الحالة التي يتخصّص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسَه أكبر من غيره[٣].

والكبرُ لا يليق بأحد من المخلوقين، وإنما سمةُ العبيد الخشوعُ، والتذللُ[٤]، وأصلُ التكبر الامتناعُ وعدمُ الانقياد[٥].

وكل من رأى العظمة والكبرياء لنفسه على الخصوص دون غيره، كانت رؤيتُه كاذبة، ونظرُه باطلًا، إلا الله سبحانه وتعالى[٦].

فالكبرُ مرض يضرُّ الإنسان في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيكسبهُ

---

(١) انظر: الصحاح تاج اللغة (٢/ ٨٠٣)، ومجمل اللغة (ص: ٧٧٦)، ومختار الصحاح (ص: ٢٣٦).

(٢) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٣) انظر: المفردات للأصفهاني (ص: ٤٦٥).

(٤) انظر: شأن الدعاء للخطابي (ص: ١١٣).

(٥) انظر: فتح القدير للشوكاني (٥/ ٢٩١).

(٦) انظر: الأسماء الحسنى للرازي (ص: ١٩٥).

مقت النَّاسِ، وأما في الآخرة فيكسبه الإثمَ، والكبرُ من صفات اليهود كما أخبر عنهم سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة].

اعلم أنَّ المتكبر على أوامر الله –المعرض عنها بقلبه وعمله– يعاقَبُ في الدنيا عقوبةً من أشد العقوبات، ألا وهي الطبع على قلبِه، فلا يستطيع أن يفرقَ بين الحقِّ والباطل، ولا بين الطاعة والمعصية قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر].

وقال تبارك وتعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

«والمعنى: سأمنع فهمَ الحججِ والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوبَ المتكبرين عن طاعتي الذين يتكبرون على النَّاس بغيرِ حقٍّ أي: كما استكبروا بغيرِ حقٍّ أذهَّم الله بالجهلِ .... قال سفيانُ بن عيينة في قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ قال: أنزعُ عنهم فهمَ القرآن وأصرفُهم عن آياتي.

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي: وإن ظهر لهم ﴿سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ أي: طريق النجاة لا يسلكوها وإن ظهر لهم

طريق الهلاك والضلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾»[١].

وقد وردت أحاديثُ عديدةٌ تدلُّ على ذمَّ الكبر، وسوء منقلبِ صاحبِه، نذكرُ منها:

قوله ﷺ: «**يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرونَ يَوْمَ الْقِيَامِةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ**»[٢].

وقال ﷺ: «**لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كان فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبرٍ**» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، قال: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ**[٣] **وَغَمْطُ النَّاسِ**[٤]»[٥].

قال الحافظُ ابن حجر: إنَّ من قَصَد بِالملبوسِ الحسن إِظْهار نِعْمة الله عليه، مُسْتَحضرًا لها شاكرًا عليها، غير مُحتقِر لمن ليس له مثله، لا يَضُرّه ما لبس من المباحات، ولو كان في غاية النَّفَاسَة، ففي صحيح مسلم عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كان فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبرٍ...**» وساق حديث الباب، ثُمَّ قال: قوله: «وغَمْطُ»:

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٦٩) باختصار.

(٢) حسن: أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤٣٤)، والترمذي (٢٤٩٢)، والبغوي في شرح السنة (٦/ ٥٣٧)، قال الترمذي (٤/ ٦٥٥): هذا حديث حسن. انتهى. وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٤٩٢)، وفي صحيح الترغيب والترهيب (٣٥٨٣).

(٣) بطر الحق: دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا- مسلم شرح النووي (١/ ٣٦٧).

(٤) غمط الناس: احتقارهم- المصدر السابق.

(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٩١)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الاحتقار، وأما ما أخرجه الطبري من حديث عليٍّ: «إِنَّ الرجلَ يُعجِبه أن يكون شِرَاكُ نَعْلِهِ أَجْودَ مِنْ شِرَاكِ صَاحِبِهِ» فيدخل في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٨٣]، فقد جمع الطبري بينه وبين حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِأَنَّ حديث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَحْمُولٌ على من أحب ذلك ليَتعظَّم بِه على صاحبه، لا من أحب ذلك ابْتِهاجًا بنعمة الله عليه، فقد أخرج الترمذي وحَسَّنَهُ من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه رَفَعَهُ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أن يَرَى أَثَر نِعْمَتِهِ على عَبْدِهِ**» وله شاهدٌ عند أبي يَعْلَى من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرج النسائي وأبو داود وصَحَّحَهُ ابنُ حبَّان والحاكمُ من حديث أبي الأحْوَص عَوْف بن مالك الجُشَمِيّ عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال له وَرَآهُ رَثَّ الثِّيَاب: إذا آتَاكَ الله مَالًا فَلْيُرَ أَثَرُهُ عَلَيْكَ**» أيْ بِأن يَلبس ثيابًا تَلِيق بِحاله من النَّفاسَة والنَّظافة لِيَعْرِفَه المحتَاجُون للطَّلَبِ منه، مع مراعاة القصْد وترْك الإِسراف جمْعًا بين الأدلة»[1].

ومن الكبر أن يحتقرَ المسلمُ أخاه المسلم بقول أو فعل أو نظر، فينظر لهذا على أَنَّهُ حقيرٌ، وهذا فقيرٌ، وهذا ضعيفُ العقلِ، قليلُ العلمِ وهذا به كذا وذاك به كذا، وينسَى أن ما به من نعمة -سواء أكانت مالًا أم جمالًا أم جاهًا أم رياسةً ومكانةً في المجتمع ... أم غير ذلك- من النعمِ فمن الله تعالى فسبحانه الذي أعطى وهو القادرُ على أخذها في لمحِ البصرِ كما فعل بقارون، قال تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ

(١) انظر: فتح الباري (٧/ ٢٩١).

ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾، إلى قوله سبحانه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص].

«فلما انتهت بقارونَ حالةُ البغي والفخر، وازيَّنت الدنيا عنده وكَثُر بها إعجابُه، بَغتَهُ العذابُ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ جزاءً من جنسِ عمله، فكلما رفعَ نفسه على عباد الله أنزله الله أسفلَ سافلين، هو وما اغترَّ به من داره وأثاثه ومتاعه»[1].

الكبر يُنافي حقيقة العبودية:

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية].

فالكبرياءُ من خصائصِ الربوبية فمن كان من صفاته هذا الخُلق، فكأنَّه ينازعُ الله في صفاته وهو سبحانه: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وهذا بلا شكٍّ ينافي حقيقة العبودية، قال ﷺ في الحديث القدسي الذي رواه عن الله تعالى: «**الْعِزُّ إِزَارُهُ وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فمن يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ**»[2].

الكبرُ من أخلاق الكفار والتواضعُ من أخلاق الأنبياءِ:

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٦٢٤).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٢٠)، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر: ٢٧]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص]، ومِثْل هذا في القرآن كثير.

وهو سبحانه لا يحبُّ الكبر قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [النحل].

وقد مدحَ عباده المؤمنين بالتواضعِ فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، يعني متواضعين ومدحهم بتواضعهم وأمر نبيَّهُ ﷺ بالتواضعِ فقال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر]، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء]، ومدَح النَّبيَّ ﷺ بخلقه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم]، وكان خلقُه التواضعَ لأنَّه رُوي أنَّهُ كان يركبُ الحمار ويجيبُ دعوة المملوك، فثبتَ أنَّ التواضع من أحسنِ الأخلاق، وكان الصالحون من قَبلُ أخلاقُهم التواضعُ فوجب علينا أن نقتدي بهم.

ذُكر عن عمرَ بن عبد العزيز- رحمَهُ الله تعالى- أنَّهُ أتاه ذاتَ ليلة ضيفٌ فلما صلَّى العشاء كان يكتبُ شيئًا والضيفُ عنده كادَ السراجُ أن ينطفئ، فقال الضيفُ : يا أميرَ المؤمنين أقوم إلى المصباحِ فأصلحه؟ قال: ليس من مروءة الرجلِ أن يستعمل ضيفه، قال: أفأُنَبِّهُ الغلامَ؟ قال: لا،

هي أولُ نومة نامها، فقامَ عمرُ وأخذ البطة فملأ المصباحَ، فقال الضيفُ قمت بنفسك يا أميرَ المؤمنين؟ قال: ذهبتُ وأنا عمر ورجعتُ وأنا عمرُ، وخيرُ النَّاسِ عند الله من كان متواضعًا[١] والآثارُ عن التواضع وذمِّ الكبرِ كثيرةٌ جدًّا لا تُحصى وليس المقام يتسع لسردها فينبغي لكلِّ ذي عقلٍ أن يجاهد نفسَه على ترك الكبر والتخلق بخلق التواضعِ ففي التواضعِ العزةُ والرفعةُ في الدنيا والآخرة، والكبرُ بالعكس.

قال رسول الله ﷺ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زادَ الله عَبْدًا بِعفْوٍ إلا عِزًّا وَمَا تَواضَعَ أَحَدٌ لله إلا رَفَعَهُ الله**»[٢].

الترهيبُ من التكبرِ بعلومِ الآخرةِ:

أشرُّ الكبرِ من يتكبرُ على العباد لعلمه، ويتعاظُم في نفسه بفضيلته، فإنَّ هذا لم ينفعه علمُه، فإنَّ من طلب العلم للآخرة كسرَه علمُه، وخشعَ قلبُه واستكانت نفسُه، وكان على نفسه بالمرصاد فلا يَفْتُرُ عنها بل يحاسبُها كلَّ وقت ويتفَقَدُّها.

فإن غفلَ عنها جَمحت عن الطريق المستقيم وأهلكتْهُ، ومن طلب العلم للفخر والرياسة وبطرَ على المسلمين[٣] وتحامقَ عليهم وازدراهُم فهذا من أكبر الكبر ولا يدخلُ الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كبر ولا حول ولا قوة إلا باللهِ العلي العظيم[٤].

---

(١) انظر: تنبيه الغافلين (١٤١).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) تكبر على المسلمين.

(٤) انظر: الكبائر (١٠٥).

المرض الثامن عشر
غفلة القلب

الغفلة في اللغة: غَفَل غفلةً وغُفُولاً، والتَّغافُلُ: التَّعَمُّدُ، وأَغفَلْتَ الشيءَ: تركته غُفْلاً وأنت له ذاكر، والمُغَفَّلُ: من لا فطنة له[١].

وفي الاصطلاح: فقدُ الشعور بما حقُّه أن يُشعَرَ به، قاله الحرالِيُّ ...، وقال الراغب: هو سَهْوٌ يَعْتَرِي مِن قِلَّة التحفظ والتيقظ، وقيل: متابعةُ النفس على ما تشتهيه[٢]، فيشتغل قلبُه بالشهوة فتستولي عليه، حتى تصير فيه غفلةٌ، فيعرض عن ما ينفعُه في الآخرة، ويقبل على ما يضرُّه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء].

قال ابن جرير الطبريّ: يقول تعالى ذكره: دنا حسابُ النَّاسِ على أعمالهم التي عملوها في دنياهم، ونعمهم التي أنعمها عليهم فيها في أبدانهم وأجسامهم ومطاعمهم ومشاربهم وملابسهم، وغير ذلك من نعمه عندهم، ومسألته إياهم ماذا عملوا فيها، وهل أطاعوه فيها فانتهوا إلى أمره ونهيه في جميعها، أم عصوه فخالفُوا أمرَه فيها؟ ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾، يقولُ: وهم في الدنيا عما اللهُ فاعلٌ بِهِم من ذلك يوم القيامة،

---

(١) انظر: المحيط في اللغة (١/ ٤١٢)، وغريب الحديث للخطابي (٢/ ٤٧٧)، والصحاح تاج اللغة (٥/ ١٧٨٢)، ومختار الصحاح (ص: ٢٢٨).

(٢) انظر: تاج العروس (٣٠/ ١٢٠).

وعن دونِ محاسبته إياهم منهم واقترابه لهم في سهوٍ وغفلةٍ وقد أعرضُوا عن ذلك فتركوا الفكر فيه، والاستعداد له والتأهب جَهلًا منهم بما هم لاقُوه عند ذلك من عظيم البلاء وشديد الأهوال.

وعن النبي ﷺ: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء]، قال: «**فِي الدُّنْيَا**»(١)(٢).

وللغافل صفاتٌ كثيرةٌ: ذكرها ربُّنَا سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، وهي صفاتُ البشر عامةً -إلا من رحم الله- وتظهرُ أكثر عند أهل الغفلة، ونذكر منها:

١ - يحبُّ الشهوات:

قال تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ۝١٤﴾ [آل عمران].

«يخبر تعالى أنه زيَّن للناس حبَّ الشهوات الدنيوية وخصَّ هذه الأمور المذكورة لأنها أعظمُ شهوات الدنيا، وغيرُها تبعٌ لها، قال تعالى:

---

(١) أصل الحديث في الصحيحين، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٩﴾ [مريم: ٣٩]، وقال ﷺ: «أهلُ الدنيا في غَفْلَة»، أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) جامع البيان (١٠/ ٣).

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف: ٧]، فلما زُينت لهم هذه المذكورات بما فيها من الدواعي المثيرات، تعلَّقت بها نفوسُهم ومالت إليها قلوبُهم وانقسموا بحسب الواقع إلى قسمين: قسم جعلوه هو المقصود، فصارت أفكارُهم وخواطرُهم وأعمالُهم الظاهرةُ والباطنةُ لها، فشغلتهم عما خُلِقُوا لأجله وصحبُوها صحبةَ البهائم السائمة يتمتعون بلذاتها ويتناولون شهواتها ولا يبالون على أي وجه حصَّلُوها ولا فيما أنفقوها وصرفوها، فهؤلاء كانت زادًا لهم إلى دار الشقاء والعناء والعذاب.

والقسم الثاني: عرفوا المقصود منها وأن الله جعلها ابتلاءً وامتحانًا لعباده ليعلم من يُقَدِّم طاعتَه ومرضاته على لذَّاته وشهواته فجعلوها وسيلةً لهم وطريقًا يتزودون منها لآخرتهم ويتمتعون بما يتمتعون به على وجه الاستعانة به على مرضاته قد صحبوها بأبدانهم وفارقُوها بقلوبهم وعلموا أنها كما قال الله فيها ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤]، فجلُوها معبرًا إلى الدار الآخرة ومَتجَرًا يرجون بها الفوائد الفاخرة فهؤلاء صارت لهم زادًا إلى ربهم»[(١)].

٢- يُلهيه التكاثرُ:

قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر].

والمعنى: شغلكم التباهي والفخرُ بكثرة الأموال والأولاد، وشرف

(١) ما بين القوسين من تيسير الكريم الرحمن (١٢٤).

الآباء والأجداد وغير ذلك من أمور الدنيا، التي تصرف القلب عن الجِدِّ والاجتهاد في العمل للآخرة ﴿حتى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾، حتى هلكتم ومتُّم وصِرتُم إلى المقابر، فدُفِنتُم فيها، فالميتُ يأتي القبر كالزائر، لأن وجوده فيه مؤقتًا[1].

فأفنيتم عمرَكم في الأعمال السيئة وما تنبّهتم طول حياتكم إلى ما هو سببُ سعادتكم ونجاتكم. وزيارةُ القبور عبارةٌ عن الموت.

٣- باغ طاغ لو منَّ الله عليه:

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق].

وقال سبحانه ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٧﴾ [الشورى].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

٤- يحبُّ العاجلة ويذرُ الآخرة:

قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ۝٢١﴾ [القيامة:].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۝٢٧﴾ [الإنسان].

٥- فَرِحٌ فخورٌ إذا ذاق النعمة:

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١٤/ ٥٠٧-٥٠٩)، وأضواء البيان (٩/ ٧٦، ٧٧)، ومحاسن التأويل (٧/ ٣٨٧-٣٨٩)، وتفسير الطبري (٣٠/ ٣٦٢-٣٦٥)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٣٣- ٩٣٤).

قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود].

وهذه طبيعةُ الإنسان من حيثُ هو إنسانٌ، ويَبرُز هذا الخُلُقُ عند أهل الغفلة، إلا من وفَّقَه الله تعالى وأخرجه من الغفلة إلى اليقظة، وهم الذين ذكرَهُم سبحانه في الآية، هم الذين صبروا في السراء والضراء وقاموا بحقوق الله تعالى على كلِّ حال.

٦- ظالمٌ لنفسه:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٤﴾ [يونس]، وقال سبحانه: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ [الكهف: ٣٥].

من صور ظلم الإنسان لنفسه غفلتُه عما خُلِقَ من أجله، وعمَّا هو مُقْدِمٌ عليه في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألف سنة.

٧- يتبعُ الشيطان:

أهلُ الغفلةِ يتَّبِعونَ خُطوات الشيطان، ويقعون في مصائده أسرعَ من غيرِهم، وذلك لغفلتهم عن تحذيرِ الله تعالى من الشيطان، وطُرُقِه في إغواء بني آدمَ وشدة عداوته لهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝٢١﴾

[سبأ]، وَقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف]، والآياتُ كثيرةٌ جدًّا في بيان عداوة وخطر الشيطان على الإنسان.

٨- الغافلُ هلوعٌ جزوعٌ منوعٌ:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج].

يقولُ تعالى مخبرًا عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ثم فسره بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾، أي: إذا أصابَه الضرُّ فَزِعَ وجَزِعَ وانخلعَ قلبُه من شدة الرعبِ، وأيسَ أن يحصل له بعد ذلك خيرٌ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أي: حصلت له نعمةٌ من الله تعالى بَخل بها على غيرِه، ومنعَ حق الله تعالى فيها... ثم قال ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾، أي: الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذمِّ إلا من عصمه الله ووفَّقَه وهداه إلى الخيرِ ويسَّر له أسبابه وهم المصلون...[(١)].

الغفلة قحط: فإن الغفلة التي تنزل بالقلب هي القحطُ والجدبُ، فما دام في ذكر الله والإقبالِ عليه فغيثُ الرحمة واقع عليه كالمطر المتدارك، فإذا غفلَ ناله من القحط بحسب غفلته قلةً وكثرةً، فإذا تمكنت الغفلةُ واستحكمتْ صارتْ أرضُه ميتة، وسَنَتُه جرداء يابسة، وحريقُ الشهوات فيها من كل جانبٍ السمائم[(٢)][(٣)].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥١٨).

(٢) السمائم: الريح الحارة- اللسان (١٢/ ٣٠٤).

(٣) انظر: ذوق الصلاة عند ابن القيم (ص: ١١).

المرض التاسع عشر
الغدرُ وعدمُ الوفاء بالعهد

الغدر في اللغة: قال ابن سيده: الغدرُ ضدُّ الوفاءِ بالعهد، وقال غيرُهُ: الغدرُ تركُ الوفاء...، تقول: غَدَرَ إذا نقضَ العهدَ ...، وقال المناوي: الغدرُ نقضُ العهد، والإخلالُ بالشيء وتركُهُ[١].

وفي الاصطلاح: الغادرُ: هو الذي يواعدُ على أمرٍ ولا يَفي بِه[٢]، وقال الأبشيهي: كان يقال: لم يَغْدِرْ غادرٌ قط إلا لِصِغَرِ همَّته عن الوفاء، واتِّضاعِ قدره عن احتمال المكاره في جنب نيل المكارم[٣].

والغدرُ من صفات المنافقين قال رسول الله ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كان مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كانت فيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كانتْ فيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حتى يَدَعَهَا**... » وذكر منها وَإذا عَاهَدَ غَدَر... [٤].

وعن النبي ﷺ أَنَّهُ قال: «**قال الله: ثَلاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثم غَدَرَ وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ**»[٥].

قال ابنُ التينِ: هو سبحانه وتعالى خَصْمٌ لجميع الظالمين، إلا أَنَّهُ أراد

---

(١) انظر: لسان العرب (٥/ ٨)، والتوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٢٥٠).
(٢) شرح مسلم (٦/ ٢٨٧).
(٣) انظر: المستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين الإبشيهي (ص: ٢١٨).
(٤) متفق عليه، تقدم تخريجه.
(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٢٢٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

التشديد على هؤلاء بالتصريح[١].

قال الحافظُ: قولُه (أَعطَي بي ثم غدر) كذا للجميع على حذف المفعول والتقديرِ أَعطَى بيمينه بي أي عاهد عهدًا وحلف عليه بالله ثم نقضَهُ[٢].

وعنه ﷺ أَنَّهُ قال: «**لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ[٣] يَوْمَ القِيَامَةِ يُقَالُ: هذه غَدْرَةُ فُلانِ بْنِ فُلاَنٍ**»[٤].

ذمُّ عدم الوفاء بالعهد:

مَكْمَنُ الخطر في هذا المرض أَنَّهُ يورثُ النِّفاق في القلبِ -إن لم يتبْ صاحبُه ويرجعْ عن عدمِ الوفاء بالعهد- قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة].

قال ابن جرير الطبريُّ: ومن هؤلاء المنافقين الذين وصفتُ لك يا محمدُ صفتَهم ﴿مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ بقوله: أَعطى اللهَ عهدًا ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ يقول: لئن أعطانا الله من فضله ورزقنا مالًا ووسَّع علينا من عنده

---

(١) انظر: فتح الباري (٤/ ٤٨٨).

(٢) المصدر السابق.

(٣) لكل غادر لواء: أي علامة يشهر بها في الناس- شرح مسلم (٦/ ٢٨٧).

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١٨٨)، ومسلم (١٧٣٥)، من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾...

إلى أن قال: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم﴾ الله ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ بفضلِ الله الذي آتاهُم فلم يَصَّدَّقُوا منه ولم يَصِلُوا منه قرابةً ولم ينفقوا منه في حق الله، ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ يقول: وأدبروا عن عهدهم الذي عاهدُوه اللهَ ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ فأعقبهم الله نفاقًا في قلوبِهم ببخلهم بحق الله الذي فُرِضَ عليهم فيما آتاهُم من فضله وإخلافهم الوعدَ الذي وعَدُوا اللهَ ونقضهم عهدَه في قلوبهم[١].

تنبيهٌ:

كثيرٌ من النَّاس يظنون أنَّ هذه الآية نزلت في ثعلبةَ بن حاطبٍ وهذا غيرُ صحيح؛ لأنَّ ثعلبةَ من الصحابة الذين شَهِدُوا بدرًا مع رسُول الله ﷺ، ومن المعلوم أنَّ النَّبِيَّ ﷺ شَهد لأهل بدر بالجنة وعدمِ دخول النار، عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن عبدًا لحاطبِ بن أبي بلتعة جاء يَشكو حاطبًا، فقال: يا رسول الله: ليدخُلنَّ حاطبٌ النار، فقال رسول الله ﷺ: «**كَذَبْتَ لاَ يَدْخُلُهَا، فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ**»[٢].

قال القرطبيُّ: وثعلبةُ بدريٌّ أنصاريٌّ وممن شهد الله له ورسولُه بالإيمان حسب ما يأتي بيانه في أول الممتحنة، فما رُوي عنه غيرُ صحيح[٣].

---

(١) جامع البيان (٦/ ٢٤٠).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٩٥)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٩٤).

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على الموفين بعهدهم لأنّهُ سبحانه أمرهم فأطاعُوه:

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة].

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء].

وَقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ﴾ [المائدة: ١].

قال الحسن: يعني بذلك عقود الدينِ وهي: ما عقده المرء على نفسه من بيع وشراء، وإجارة وكراء، ومناكحة وطلاق، ومزارعة ومصالحة، وتمليك وتخيير، وعتق وتدبير، وغير ذلك من الأمور، ما كان ذلك غير خارجٍ عن الشريعة وكذلك ما عقدَهُ على نفسه لله من الطاعات، كالحج والصيام والاعتكاف والقيام والنذر، وما أشبهَ ذلك من طاعات ملة الإسلام(١).

عقوبات الغدر وعدم الوفاء بالعهد:

أولًا: اللعنة، وقساوة القلب، وتحريف الكلام، والنسيان:

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟

(١) انظر: تفسير القرطبي (٦/ ٣٥).

بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣﴾ [المائدة].

قال ابن كثير: فلما نقضُوا عهوده ومواثيقه أعقبَهم ذلك لعنًا منه لهم، وطردًا عن بابِه وجنابِه، وحجابًا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودينِ الحق، وهو العلمُ النافعُ والعملُ الصالحُ(١).

قال السَّعدي: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ﴾، أي: بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات:

الأولى: أنَّا ﴿لَعَنَّٰهُمۡ﴾، أي: طرَدْنَاهم وأبعَدْنَاهم من رحمتنا، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة، ولم يقوموا بالعهد الذي أُخذ عليهم، الذي هو سببُها الأعظم.

الثانية: قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ﴾، أي: غليظة لا تجدي فيها المواعظُ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يُرَغِّبُهم تشويقٌ، ولا يُزْعِجُهم تخويفٌ، وهذا من أعظم العقوبات على العبد، أن يكون قلبُه بهذه الصفة التي لا يُفيده الهدى، والخيرُ إلا شرًّا.

الثالثة: أنهم ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، أي: ابْتُلوا بالتغيير والتبديل، فيجعلون للكلم الذي أراد الله معنىً غير ما أراده اللهُ ولا رسولُه.

الرابعة: أنهم ﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ فإنهم ذُكِّرُوا

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٤).

بالتوراة، وبما أَنزل اللهُ على موسى، فنسُوا حظًّا منه، وهذا شاملٌ لنسيان علمه، وأنهم نَسُوه وضاع عنهم، ولم يوجد كثيرٌ مما أنساهم الله إياه عقوبةً منه لهم.

وشاملٌ لنسيان العمل الذي هو الترك، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به، ويستدل بهذا على أهل الكتاب بإنكارهم بعض الذي قد ذكر في كتابهم، أو وقع في زمانهم، أنه مما نسوه.

الخامسة: الخيانة المستمرة التي ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾، أي: خيانة لله ولعباده المؤمنين.

ومن أعظم الخيانة منهم، كتمُهم عن من يعظهم ويحسن فيهم الظن الحقَّ، وإبقاؤُهم على كفرهم، فهذه خيانةٌ عظيمة، وهذه الخصالُ الذميمة، حاصلةٌ لكل من اتَّصف بصفاتهم.

فكل من لم يَقُم بما أمر الله به، وأُخِذ به عليه الالتزام، كان له نصيبٌ من اللعنة وقسوة القلب، والابتلاء بتحريف الكلم، وأنه لا يُوَفَّق للصواب، ونسيان حظٍّ مما ذُكِّر به، وأنه لا بد أن يُبتلى بالخيانة، نسأل الله العافية[1].

ثانيًا: الخسارة في الدنيا والآخرة:

قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ

(١) تفسير السعدي (ص: ٢١٥).

وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة].

ثالثًا: سوء العاقبة والمآل:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد].

رابعًا: شرار الخلق عند الله:

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنفال].

قال ابن كثير: أخبر تعالى أن شرَّ ما دبَّ على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهدًا نَقَضُوه، وكلما أَكَّدوه بالأَيْمان نَكَثُوه، ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾، أي: لا يخافون من الله في شيء ارتكبُوه من الآثام[1].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٧٨).

المرض العشرون
الشماتة والتربصُ بالدوائرِ

الشماتةُ في اللغة: الفرحُ بِبَلِيَّةٍ تنزلُ بمن تُعاديه. والفعلُ منها شَمِتَ يشْمَتُ، وأشْمَتَه الله بكذا وكذا، ومنه قول الله عز وجل عن هارون أنه قال لأخيه: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ [الأعراف: ١٥٠][(١)].

وفي الاصطلاح: قريبٌ من المعنى في اللغة، وهو الفرح بِبَلِيَّةِ العدو، وكان رسول الله ﷺ يتعوذُ من شماتة الأعداء، ففي الصحيحين، من حديث أبي هريرة: «**كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ جَهْدِ البَلاَءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ القَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ**»[(٢)].

كُـلُّ الْمُصَـائِبِ قَـدْ تَمُـرُّ عـلى الْفَتَـى ... فَتَهـونُ غَـيْرَ شَـمَاتَةِ الْاَعْـدَاءِ[(٣)]

وما زال العقلاءُ يُظْهِرُون التجَلُّد عند المصائب والفقر والبلاء، لئلَّا يتحملوا مع النوائب شماتةَ الأعداء[(٤)].

واعلم أن الحسد والشماتة يتلازمان، فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم

---

(١) انظر: لسان العرب (٥/ ١٨٠)، وتهذيب اللغة (١١/ ٢٢٦)، والمحيط في اللغة (٢/ ١٦١)، ومقاييس اللغة (٢/ ٢١٠).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٤٧)، ومسلم (٢٧٠٧).

(٣) انظر: الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح (١/ ٣٣٧، ٣٤٠).

(٤) انظر: صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٣١٨).

مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩]، فأخبر تعالى أن حبَّهم زوالَ نعمة الإيمان حسدٌ[١].

فدلت آيات الكتاب أن الشماتة والتربص بالدوائر من خُلُق الكفار والمنافقين، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ٥٢﴾ [التوبة].

أي: قل للمنافقين الذين يتربصون بكم الدوائر: أي شيء تَرَبَّصُون بنا؟ فإنكم لا تَرَبَّصُون بنا إلا أمرًا فيه غايةُ نفعنا، وهو إحدى الحسنيين، إما الظفرُ بالأعداء والنصرُ عليهم ونيلُ الثواب الأخروي والدنيوي، وإما الشهادةُ التي هي من أعلى درجات الخلق، وأرفعُ المنازل عند الله.

وأما تَرَبُّصُنا بكم -يا معشر المنافقين- فنحن نَتَرَبَّص بكم، أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، لا سببَ لنا فيه، أو بأيدينا، بأن يُسَلِّطَنا عليكم فنقْتُلَكم. ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾، بنا الخيرَ ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾، بكم الشرَّ[٢].

وقد تقع الشماتةُ بين المسلمين، فلو علم المسلمُ أن الشماتة من خُلُق المنافقين لجاهد نفسُه على ترك هذه الصفة والخلق المشين.

فالمسلمُ الكيسُ الفطنُ هو الذي يتاجرُ مع الله تجارةً لن تبور، ويبحث

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ١٩٠).
(٢) انظر: تفسير السعدي (ص: ٣٤٠).

عن كلِّ عملٍ يُثَقِّلُ ميزانَه يوم القيامة، ومن هذا كظمُ الغيظ، وجهادُ النفس على أن ترقى إلى مرتبة العفوِ عن كلِّ من أساء إليها بقول أو فعل، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران]، ويحتسبُ ذلك عند الله، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال ﷺ: «**مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إلا عِزًّا**»(١).

«وفي الصفح والعفو والحلم من الحلاوة والطمأنينة والسكينة وشرف النفسِ وعزِّها ورفعتها عن تَشَفِّيها بالانتقامِ، ما ليس في المقابلة والانتقام.

فإنَّ القلبَ إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهمُّ عنده وخيرٌ له منه، فيكون بذلك مغبونًا، والرشيدُ لا يرضى بذلك ويرى أنَّهُ من تصرفات السفيه، فأين سلامةُ القلبِ من امتلائه بالغلِّ والوساوس وإعمال الفكرِ في إدراك الانتقام؟!!»(٢) ثم بعد الانتقام يشمَتُ ثم ماذا؟؟؟ لا شيء، ولو غفر وعفا كان خيرًا له في الدنيا والآخرة، وذلك لأنَّ الغلَّ والحقدَ يُعكران صفاء القلبِ، ويوجبان العداوة مع الغيرِ، فضلًا عن فواته منزلة المحسنين بسببِ الشماتة وترك العفو عن أخيه المسلم.

---

(١) صحيح، تقدم تخريجه باب مرض الكبر.

(٢) ما بين القوسين من مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٣٠٣) بتصرف.

المرض الحادي والعشرون
الهوى

الهوى في اللغة: الهاءُ والواوُ والياءُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى خُلُوٍّ وَسُقُوطٍ، هَوِيَ بالكسر يَهْوَى هَوىً، أي: أحبَّ، الأصمعي: هَوَى بالفتح يَهوِي هُوِيًا، أي: سَقَطَ إلى أسفل[١].

وفي الاصطلاح: الهوى هَوى النفس ... لأنه خالٍ من كل خير، ويَهوِي بصاحبه فيما لا ينبغي، قال تعالى في وصفه نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النجم][٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ونفسُ المهوِي يسمى هوى ما يَهوى، فاتباعُه كاتباعِ السبيلِ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ [المائدة: ٧٧]، فاتباع الهوى يُرادُ به نفسُ مسمى المصدر، أي اتباعُ إرادته ومحبته التي هي هواه، واتباعُ الإرادة: هو فعل ما تَهواه النفسُ كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾ [لقمان: ١٥][٣].

وقال ابنُ الجوزي: تأملتُ وقوعَ المعاصي من العصاة فوجدتهم لا يقصدون العصيان، وإنَّما يقصدون موافقة هواهم، فوقع العصيانُ تبعًا[٤].

فينبغي للعاقلِ أن يتأملَ العواقب، وما آلَ إليه أهلُ الأهواء من

---

(١) انظر: مقاييس اللغة (٦/ ١٥)، والصحاح تاج اللغة (٦/ ٢٥٣٨).
(٢) انظر: مقاييس اللغة (٦/ ١٦).
(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٨٥).
(٤) صيد الخاطر (ص: ١٩٧).

الوقوع في الضلال، ومن ذلك معرفة الحكم في أي مسألة بالأدلة من القرآن والسنة، وظهور الحجة على صحة هذا الحكم، ثم ترى البعض يترك حكم الله، ويتبع هواه بحجة أنه سأل فلانًا، أو فلانًا، فَيَضِلّ، ثم تنزل العقوباتُ على قلبه وبدنه، ومن ذلك عدمُ الفهم عن الله، والإعراضُ عن طلب العلم الشرعيِّ، والوقوعُ في البدع، إلى غير ذلك.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [ص: ٢٦]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠﴾ [القصص].

«وأنتَ تجدُ تحت هذا الخطابِ أن الله لا يهدي من اتبع هواهُ وجعل – سبحانه وتعالى– المتبع قسمين لا ثالث لهما: إما ما جاء به الرسولُ ﷺ وإما الهوى، فمن اتبع أحدَهما لا يمكنه اتباعُ الآخر، والشيطان يطيفُ بالعبد من أين يدخل عليه فلا يجدُ عليه مدخلًا ولا إليه طريقًا إلا من هواه، فلذلك كان الذي يخالف هواه يَفْرَق الشيطان من ظله، وإِنَّما تُطاقُ مخالفةُ الهوى بالرغبة في الله وثوابه والخشية من حجابِه وعذابه، ووجد حلاوة الشفاء في مخالفة الهوى، فإنَّ متابعتَه الداءُ الأكبرُ، ومخالفتَه الشفاءُ الأعظمُ.

وقيل لأبِي القاسمِ الجنيد: متى تَنالُ النفوسُ مُنَاها؟ فقال: إذا صار داؤُها دواءَها، فقيل له: ومتى يصير داؤُهَا دواءَها؟ فقال: إذا خالفت هواها، ومعنى قوله: يصيرُ داؤُها دواءَها: أن داءَها هو الهوى فإذا خالفتَه

تداوت منه بمخالفته»[١].

قال السفاريني: ولا شك أن في مخالفة النفوس لهواها اعتزازَها، أي قوتها ومنعتها من الشيطان وجنوده وعدم ذلها، فلما قَمع هوى نفسه بمقمعة المتابعة وضربها بسياط الاقتداء، وصرفَها بزمام التقوى، حصلَ لها العزُّ والامتناعُ، والقوةُ والارتفاعُ، بحسن الاتباعِ، ومخالفة الابتداعِ[٢].

وقال مالك: لا يُؤْخَذُ العلمُ عن أربعة ويؤخذ عمَّن سواهم، لا يؤخذ عن مُعْلِنٍ بالسَّفه، ولا عمَّن جُرِبَ عليه الكذبُ، ولا عن صاحبِ هَوىً يدعو الناس إلى هواه، ولا عن شيخٍ له فضلٌ وعبادةٌ إذا كان لا يعرفُ ما يُحدِّثُ به[٣].

فتجدُ صاحبَ الهوى إمّا أن يكون عابدًا مبتدعًا، وإما أن يكون عاصيًا متبعًا لشهوته، فهو يعلم من نفسه أَنَّهُ صاحبُ بدعة أو أَنَّهُ صاحبُ معصية ومع ذلك تراه يتركُ النصوص المحكمة من الكتاب والسنة ويتتبعُ زلَّاتِ العلماء، وقد قال أحدُ السَّلف الصالحِ من تتبعَ زلَّاتِ العلماء فقد تزندقَ[٤] أو يبحث عمن يُرَخِّصُ له في معصيته أو في بدعته وهو يعلم أن من ذهب إليه ليس من العلماء الربانيين المتبعين للكتابِ والسنة، فلا يزالُ يبحث عن شيخٍ يُرخص له أكلَ الرِّبا أو أخذَ الرشوة أو التوسلِ بالأولياء

---

(١) انظر: روضة المحبين لابن القيم (ص: ٣٤٠).
(٢) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب للسفاريني (٢/ ٤٥٥).
(٣) انظر: الآداب الشرعية (٢/ ١٣٤).
(٤) الزنديق: هو المنافق نفاقًا عقديًا.

وإلى غيرِ ذلك من الأشياء المحرمة تحريمًا بيِّنًا، وكذلك تَذهبُ الأخت إلى الشيخِ الذي يُرخص لها النمصَ وتركَ الحجاب الشرعيِّ الذي جاءت صفته في القرآن والسنة، ويُرَخِّصُ لها من ملابسٍ لا صلةَ لها باللباس الشرعيِّ أو يُرخص لها السفرَ بغير محرمٍ، والأمثلةُ كثيرةٌ جدًّا لكن قِسْ ما ذكرتُ على ما لم أذكرْ، فصاحبُ الهوى عبدَ هَوَاهُ فأضلَّه اللهُ تعالى على علمٍ، قال الله سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية].

قال الشعبيُّ: وسمي هَوىً لأنّه يَهوِي بصاحبِه، ومطلقُه يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكرٍ في العاقبة، ويحثُّ على نيلِ الشهوات عاجلًا وآجلًا وإن كانت سببًا لأعظم الآلام عاجلًا وآجلًا فللدنيا عاقبةٌ قبلَ عاقبة الآخرة، والهوى يُعمي صَاحبَه من ملاحظتها والمروءةُ والدينُ والعقلُ يَنهي عن لذةٍ تُعقبُ ألمًا وشهوةٍ تورثُ ندمًا فكلٌّ منها يقولُ للنفسِ إذا أرادت ذلك: لا تَفعلي والطاعةُ لمن غلب أَلا ترى أن الطفل يُؤْثِرُ ما يهوي وإن أدَّاه إلى التلف لضعف ناهي العقلِ عنده، ومن لا دينَ له يُؤثر ما يَهوَاهُ وإن أدَّاه إلى هلاكه في الآخرة لضعف ناهي الدين، ومن لا مروءةَ له يؤثر ما يَهوَاهُ وإن ثَلم مروءته أو عدمها لضعف نهي المروءة فأين هذا من قول الشافعي- رحمه الله- لو علمت أن الماءَ الباردَ يثلم مروءَتي لما شربته.. إلى أن قال: ولو زال عنه رينُ الهوى لعلم أَنَّهُ قد شَقِي من حيث قدَّرَ السعادة واغتمَّ من حيث ظنَّ الفرح- وأَلِمَ من حيث أرادَ اللذة فهو كالطائر

المخدوعِ بحبِة القمح لا هو نالَ الحبةَ ولا هو تخلص مما وقعَ فيه [١].

عن أبي حازمٍ قال: شيئانِ هما خير الدنيا والآخرة إذا عملتَ بهما أَتكفلُ لك بالجنة، ولا أُطوِّلُ عليك قيل: وما هما؟ قال: تحملُ ما تكره إذا أحبَّه الله، وتترك ما تحبُّ إذا كرهه الله، وقال أيضا: قاتِلْ هواك أشد ما تقاتل عدوَّك، وقال رجل له: إنك مُشدِدٌ فقال: ما لي لا أُشددُ، وقد صدَّني أربعة عشر عدوًّا أما أربعةٌ فشيطانٌ يَفْتِنَنِي، ومؤمنٌ يَحْسُدني، وكافرٌ يُقاتلني، ومنافقٌ يَبغضُني، وأما العشرةُ فالجوع، والعطش، والعري، والحر، والبرد، والهرم، والمرض، والفقر، والموت، والنار، ولا أُطيقهن إلا بسلاحٍ، ولا أجد لهن سلاحًا أقوى من التقوى، وقيل له: ما مالُك؟ فقال: ثقتي بالله، وإياسي مما في أيدي الناس، وقال: ما رأيتُ يقينًا لا شك فيه أشبهَ بشكٍّ لا يقينَ فيه من شيءٍ تحنُّ عليه[٢].

علاجُ الهوى:

وقد أورد ابنُ القيِّمِ خمسين سببًا لعلاجِ الهوى- نذكرُ هنا بعضًا منها باختصارٍ:

- عزيمةُ حرٍّ يغارُ لنفسه وعليها.
- جرعةُ صبرٍ يُصَبِّرُ نفسَه على مرارتها تلك الساعة.

---

(١) روضة المحبين (٣٩١) وما بعدها.

(٢) انظر: المدخل لابن الحاج (٣/ ١٥٨).

- ملاحظتُه الألم الزائدَ[١] على لذة طاعة هواه.
- إبقاؤُه على منزلته عند الله – تعالى- وفي قلوبِ عباده وهو خيرٌ وأنفعُ له من لذة موافقة الهوى.
- فرحُهُ بغلبة عدوِّه وقهرِه له ورده خاسئًا بغيظه وغمِّه وهمِّه، حيث لم ينل منه أمنيةً والله تعالى يحبُّ من عبده أن يراغمَ عدوَّهُ ويغيظه، كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وقال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠]، أي مكانًا يراغمُ فيه أعداء الله، وعلامةُ المحبة الصادقة مغايظةُ أعداء المحبوب ومراغمتُهم.
- ألا يختار لنفسه أن يكون الحيوانُ البهيمُ أحسنَ حالًا منه، فإن الحيوان يميزُ بطبعه بين مواقعَ ما يضرُّه وينفعُه لو عرَف ذلك وآثرَ ما يضرُّه كان حالُ الحيوان البهيم أحسنَ منه.
- أن يسيرَ بقلبه في عواقبِ الهوى فيتأملَ كم أفاتت معصيتُه

---

(١) من منا يطيق عذاب الله، من منا يتحمل ظلمة القبر وعذاب القبر من يتحمل النار وعذاب النار بل غمسة واحدة في النار تُنسي أسعد أهل الأرض كل ما رآه من نعيم الدنيا- قال رسول الله ﷺ: «يؤتي بأنعم الناس كان في الدُّنْيَا من أهل النار، فيقول: أصبغوه فيها صبغة فيقول: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط قرة عين قط، فيقول: لا وعزتك ما رأيت خيرًا قط ولا قرة عين قط- جزء من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه الإمام مسلم (٢٨٠٧)، وأحمد في مسنده (١٣٦٦٠) واللفظ لأحمد.

من فضيلة وكم أوقعت في رذيلة وكم أكلة منعت أكلات وكم من لذة فوتت لذات وكم من شهوة كسرت جاهًا ونَكَّسَتْ رأسًا وقَبَّحَتْ ذِكْرًا وأورثت ذمًّا وأَعقَبَت ذلًا وألزمت عارًا لا يغسله الماءُ غير أن عينَ صاحب الهوى عمياءُ.

- أن يتصور العاقلُ انقضاءَ غرضه ممن يهواه، ثم يتصور حاله بعد قضاء الوطر وما فاته وما حصل له.

- أن يَأنف لنفسه من ذلِّ طاعة الهوى، فإنَّه ما أطاعَ أحدٌ هواه قط إلا وجد في نفسه ذلًا، ولا يغترُّ بصولة أتْباعِ الهوى وكِبرِهم فَهُمْ أذلُّ النَّاس بواطن قد جمعوا بين خصلتين الكبر والذلِّ.

- أن يوازن بين سلامة الدين والعرض والمال والجاه ونيلِ اللذة المطلوبة فإنَّه لا يجدُ بينهما نسبةً البتة، فليعلمْ أنَّهُ من أسفه النَّاس ببيعه هذا بهذا.

- أن يعلم أنَّ الهوى ما خالط شيئًا إلا أفسدَهُ، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة وصارَ صاحبُه من جملة أهلِ الأهواء وإن وقع في الزهد أخرجَ صاحبَه إلى الرِّيَاء ومخالفة السنة، وإن وقع في الحكم أخرجَ صاحبَه إلى الظلمِ وصدَّه عن الحق وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجور، وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبَه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يولِّي بهواه ويعزل بهواه، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعةً وقربةً فما قارن شيئًا إلا أفسدَهُ.

- أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخلٌ على ابن آدم إلا من بابِ

هواهُ فإنه يطيفُ به من أين يدخل عليه حتى يفسدَ عليه قلبَه وأعمالَه فلا يجد مدخلًا إلا من بابِ الهوى، فيسري معه سريانَ السمِّ في الأعضاء.

- أنَّ الله سبحانه وتعالى شبَّه أتباعَ الهوى بأخس الحيوانات صورةً ومعنى فشبَّههُم بالكلبِ تارةً كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وبالحُمُرِ تارةً- كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ۝٥٠ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ۝٥١﴾ [المدثر]، وقلب صورة إلى صور القردة والخنازير تارةً.

- إنَّك إذا تأملتَ السبعةَ الذين يظلُّهم الله عز وجل في ظلِّ عرشِه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه، وجدْتَهُم إنَّما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى، فإنَّ الإمام المسلَّط القادر لا يتمكن من العدل إلا بمخالفة هواه، والشاب المؤثر لعبادة الله على داعي شبابِه لولا مخالفةُ هواه لم يقدر على ذلك، والرجل الذي قلبُه معلقٌ بالمساجد إنَّما حمله على ذلك مخالفةُ الهوى الداعي له إلى أماكن اللذات، والمتصدق المخفي لصدقَته عن شماله لولا قهرُهُ لهواه لم يقدر على ذلك، والذي دعَتهُ المرأةُ الجميلةُ الشريفةُ فخاف الله- عز وجل- وخالفَ هواه، والذي ذكرَ اللهَ عز وجل خاليًا ففاضت عيناهُ من خشيته إنَّما أوصله إلى ذلك مخالفةُ هواه، فلم يكن لحرِّ الموقف وعرقه وشدته سبيلٌ عليهم يومَ القيامة، وأصحابُ الهوى قد بلغَ منهم الحرُّ والعرقُ كلَّ مبلغٍ وهم ينتظرون بعد ذلك دخول سجنِ الهوى،

والله سبحانه وتعالى المسئولُ أن يعيذنا من أهواء نفوسِنا الأمارة بالسوء وأن يجعل هوانا تبعًا لما يحبُّهُ ويرضاه إنَّه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير[١].

الجهاد الأكبر... جهاد الهوى:

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

علَّق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكملُ النَّاسِ هدايةً أعظمُهم جهادًا.

وأفرض الجهاد جهادُ النفسِ، وجهادُ الهوى، وجهادُ الشيطان، وجهادُ الدنيا فمن جاهد هذه الأربعة في الله هدَاه الله سبلَ رضاه الموصلة إلى جنَّته ومن ترك الجهاد فإنَّه من الهوى بحسبِ ما عطل من الجهاد.

قال الجنيد[٢]: والذين جاهدُوا أهواءَهم فينا بالتوبة لنهدينَّهُم سبُلَ الإخلاصِ ولا يتمكن من جهاد عدوِّه في الظاهرِ إلا من جاهدَ هذه الأعداء باطنًا، فمن نُصِرَ عليها نُصِرَ على عدوِّه، ومن نُصرتْ عليه نُصرَ عليه عدوُّهُ[٣].

---

(١) انظر: روضة المحبين (ص: ٤٧١ - ٤٨٦).

(٢) توفي سنة (٢٩٨هـ) ترجمته في حلية الأولياء (١٠/ ٢٥٥) من أقواله: علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه، لا يقتدي به- حاشية الفوائد (١٧٧).

(٣) الفوائد (١٧٧).

المرض الثاني والعشرون
غلظة القلبِ

الغلظة في اللغة: غَلُظَ الشيءُ: يَغْلُظُ غِلَظًا، واسْتَغلَظَ مِثْلُهُ، ورجل فيه غِلْظَةٌ، وغِلاظَةٌ بالكسر، أي: فيه فَظاظَةٌ، وأَغْلَظَ له في القول، وغَلَّظَ عليه الشيءَ تغليظًا، وفيه غِلْظةٌ، وغَلْظةٌ، وغِلاظةٌ، أي: شدة واستطالة[١].

وفي الاصطلاح: غِلَظُ القلب عبارة عن تَجَهُّم الوجه، وقِلة الانفعال في الرغائب، وقلة الإشفاق والرحمة، ومن ذلك قول الشاعر:

يبكى علينا ولا نبكي على أحـد؟ لنحن أغلظ أكبـادا مـن الإبـل [٢]

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

الفظُّ الغليظُ: المرادُ به ههنا غليظ الكلامِ لقوله بعد ذلك: ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ أي: لو كنتَ سيِّء الكلامِ قاسي القلبِ عليهم لانفضُّوا عنك وتركُوكَ، ولكنَّ اللهَ جمعهم عليك وأَلانَ جانبكَ لهم تأليفًا لقلوبِهم، كما قال عبدُ الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إني أرى صفةَ رسولِ الله ﷺ في الكتبِ المتقدمة أنَّه: ليس بفظٍّ ولا غليظٍ ولا صخَّابٍ في الأسواق، ولا يجزي بالسيئةِ

---

(١) انظر الصحاح تاج اللغة (٢/ ١١٧٥)، والمحكم والمحيط الأعظم (ص: ٤٧٨).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢٦٠).

السيئةَ، لكنْ يعفُو ويصفحُ [١][٢].

وعن عروةَ بن الزبير: أن عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا زوجَ النبيِّ ﷺ قالت: دخلَ رهطٌ من اليهودِ على رسولِ الله ﷺ فقالُوا: السَّامُ [٣] عليكم، قالت: عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السامُ واللعنةُ، قالت: فقال رسولُ الله ﷺ: «**مَهْلاً يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّه....**» [٤].

وفي رواية عبد الله بن أبي مليكة: «**مَهْلاً يَا عَائِشَةُ! عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ**»[٥].

وقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيءٍ إلا زَانَهُ ولا يُنْزَعُ مِنْ شَيءٍ إلا شَانَهُ**»[٦].

وقال ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ رَفيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطي على الرِّفْقَ مَا لَا**

---

(١) أخرج البخاري (٢١٢٥)، من حديث عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ؟ قال: أَجَلْ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرْآنِ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الأحزاب: ٤٥]، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ، وَلاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٦).

(٣) السأم، والذأم واللعنة: قال ابن الأثير هكذا جاء في رواية مهموزًا- لسان العرب (٤/ ٤٥٧).

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم (٢١٦٥).

(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٣٠)، من حديث ابن أبي مليكة.

(٦) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٩٤)، من حديث عائشة أم المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

يُعطي على الْعُنْفِ وَمَا لاَ يُعطِي على مَا سِوَاهُ»[١].

على العاقلِ- انطلاقًا من هذه النصوصِ وغيرها من النصوص التي تحثُّ على الرفقِ- أن يمرن نفسه على ترك العنف والشدة والغلظِ، فالكلمُ الطيب اللين يجذبُ النفوسَ الشاردةَ الناشزةَ، فمثلًا إذا أردتَ أن تدعو أحدًا إلى دينِ الله وسلكتَ مسلك الرفق واللين في الخطابِ فإن ذلك يقرِّبُه منك ويجعله يصغي إليك، وقد يتوب ويرجع إلى الحق بسببِ كلمة طيبة والواقعُ – فضلًا عن النصوص- يشهد بذلك قال تعالى لموسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه].

لكن ولا بدَّ للإنسان أن يتنبَّه ولا يجعل الرفق يسوقه إلى الضعف والمهانة وترك الحزمِ في مواضعَ لا يصلحُ فيها إلا الحزم والقوة مثلًا إذا أخطأ الولدُ وكرَّرَ الخطأ ولم يجد عقوبةً ولم يشعر بالحزمِ من الأبِ في مثل هذه المواقف، حتمًا سيدفعه ذلك إلى تكرار الخطإ بل يدفعه إلى تعدي حدود الأدبِ مع الأبِ نفسه ومع غيره، فلا بد من أن يدور الأمر بين الرفقِ والحزمِ- فلكلِّ مقامٍ ما يناسبُه فالله سبحانه وتعالى أرحمُ الراحمين ومع ذلك يقولُ في شأن الزَّاني والزانية ﴿فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢]، وقال ﷺ الذي أرسله الله رحمةً للعالمين: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلاةِ إذا بَلَغُو سَبْعًا وَاضْرِبُوهُمْ عليها إذا بَلَغُوا عَشْرًا**»[٢]، فتأمّل.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٩٣).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٩٥)، وأحمد في المسند (٦٦٨٩، ٦٧٥٦)، وغيرهما.
=

قال ابن قدامة: واعلم: أن يحبَّ فى الله ويبغضَ فى الله، فإنك إذا أحببتَ إنسانًا لكونه مطيعًا لله فإذا عصى الله أبغضتَه فى الله، لأن من أحب لسبب أبغض لوجود ضدده، ومن اجتمعت فيه خصالٌ محمودةٌ ومكروهةٌ، فإنك تحبُّه من وجه وتبغضُه من وجه.

فينبغى أن تحبَّ المسلمَ لأسلامه، وتبغضه لمعصيته، فتكون معه على حالة متوسطة بين الانقباض والاسترسال، فأما ما يجرى منه مجرى الهفوة التى يعلم أنه نادمٌ عليها، فالأولى حينئذ الإغماضُ والسترُ، فإذا أصرَّ على المعصية، فلا بد من إظهار أثر البغض بالإعراض عنه والتباعد، وتغليظ القول له على حسب غِلَظِ المعصية وخفتها[١].

=

وقال الألباني في صحيح أبي داود (٤٩٥): حسن صحيح.

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٩٧).

المرض الثالث والعشرون
الحرص وطول الأملِ

الحرص في اللغة: الْحِرْص: مَعْرُوف، وَيُقَال: حَرَص يَحرِص حِرْصاً... وَقد قرئَ: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾ [النحل: ٣٧]، وإِن تحرَص، وَالْكَسْر أَكثر.

يُقَال: رجل حَرِيصٌ على الشَّيْء، والحرص: الجشعُ، وقد حَرَصَ على الشَّيْء، يحرِص بالكسر فهو حريصٌ، فالحرصُ: الجشعُ والإفراطُ في الرغبة[١].

وفي الاصطلاح: من صرَف كلَّ نفسه إلى الكسب، حتى لم يترك لها فراغًا إلى غيره، فهو من عبيد الدنيا، وأُسَرَاء الحرص[٢].

فحرِيٌّ بالمسلم أن يحرِصَ على ما ينفعُه في الآخرة، مِن طلبِ العلم والعمل به.

قال بعض العلماء: من أحبَّ العلم أحاطت به فضائلُه. وقال بعض الحكماء: من صاحبَ العلماء وُقِّرَ، ومن جالس السفهاء حُقِّرَ[٣].

قال المزني: دخلتُ على الشافعيِّ في مرضه الذي مات فيه، فقلت له: كيف أصبحتَ؟ قال: أصبحتُ من الدنيا راحلًا، وللإخوان مفارقًا،

---

(١) انظر: جمهرة اللغة (١/ ٥١٣)، والصحاح تاج اللغة (٢/ ١٠٣٢)، ومقاييس اللغة (٢/ ٤٠).

(٢) انظر: أدب الدنيا والدين (ص: ٤٣).

(٣) المصدر السابق.

ولسوء عملي ملاقيًا، ولكأس المنية شاربًا، وعلى الله واردًا، ولا أدرى أروحى تصيرُ إلى الجنة فأهنئها، أم إلى النار فأعزيها[١].

هذا هو الإمام الشافعي سماءُ الفقه، له من المناقب ما يصعبُ عدُّها، ويضيق المقامُ لذكرها، وهذا حالُه عند الاحتضار، فكيف بمن عصى وطغى، وأعرض واستكبر، وطال أملُه، وقوي حرصُه، وأعرض عن الطاعة وانغمس في المعصية؟!!.

قال الله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر]، وقال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ [النساء: ١١٩]، إلى قوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢٠﴾ [النساء].

وقال رسول الله ﷺ: «**لاَ يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ فِي حُبِّ الدنيا وَطُولِ الأَمَلِ**»[٢].

من طال «أملُه فاته عزُّ القناعة وتدنَّسَ لا محالة بالطمع وذل الحرص وجرَّه الحرصُ والطمعُ إلى مساوئ الأخلاق وارتكاب المنكرات الخارقة للمروءات وقد جُبِلَ الآدميُّ على الحرصِ والطمعِ وقِلَّة القناعة، قال

---

(١) انظر: مختصر منهاج القاصدين (ص: ٤٢٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٢٠) ومسلم (١٠٤٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رسول الله ﷺ: «لَوْ كان لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذهب لابتغى لهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب»[١][٢].

«ويتولدُ من طول الأملِ الكسلُ عن الطاعة والتسويفُ بالتوبة والرغبةُ في الدنيا والنسيانُ للآخرة والقسوة في القلب؛ لأنَّ رقَّتَه وصفاءه إنَّما يقع بتذكرِ الموت والقبر والثواب والعقاب وأهوال القيامة كما قال تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]، وقيل: مَن قَصُر أملُه قلَّ همُّهُ وتنوَّر قلبُه؛ لأنَّه إذا استحضرَ الموت اجتهد في الطَّاعة وقلَّ همُّه ورضِي بالقليلِ... وفي الأملِ سرٌّ لطيفٌ لأنَّه لولا الأملُ ما تَهنَّى أحدٌ بعيشٍ ولا طابَت نفسُه أن يَشرع في عمل من أعمال الدنيا وإنَّما المذمومُ منه الاسترسالُ فيه وعدمُ الاستعداد لأمرِ الآخرة فمن سلمَ من ذلك لم يكلف بإزالته»[٣].

اعلم أنَّ الحرص والأمل يجعلان الإنسان يشتغل عن مراقبة الله عز وجل وينسى الآخرة ويتعلقُ قلبُه بالدنيا الزائلة، ومن كانت تلك حالتُه كان أكبر همَّه ومبلغ علمه الدنيا والتكاثر بها، سواء أكان هذا التكاثرُ مالًا أم جَاهًا أم منصبًا أم أولادًا أم ما أشبه ذلك، ويغفل عن قول رسول الله ﷺ: **«اللهمَّ لاَ عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخِرَة»**[٤].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٣٦)، ومسلم (١٠٥٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولفظ البخاري: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب».

(٢) انظر: الإحياء (٣/ ٢٣٨).

(٣) انظر: فتح الباري (١١/ ٢٤٠-٢٤١).

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤١٣)، ومسلم (١٨٠٥)، من حديث أنس =

«قال بعضُ الحكماء: أمهاتُ الخطايا ثلاثةُ أشياء: الحسدُ والحرصُ والكبرُ، أمَّا الكبرُ فكان أصلُه من إبليس حين تكبَّر وأبَى أن يسجد فلُعِنَ، وأمَّا الحرصُ فكان أصلُه من آدم عليه السلام- حيثُ قيل له: الجنةُ كلُّها مباحٌ لك إلا هذه الشجرة فحملَه الحرصُ [١] على أكلها، حتى سقطَ منها والحسدُ أصلُه من قابيل حين قتل أخاه هابيل[٢][٣].

قال الفقيهُ: من قَصُرَ أملُه أكرَمَهُ الله تعالى بأربعِ كرامات:

إحداها: أن يُقَوِّيَه على طاعته؛ لأنَّ العبد إذا علم أنَّهُ يموت عن قريبٍ لا يهتمُّ بما يستقبله من المكروه، ويجتهد في الطاعات فيكثر عمله.

الثانيةُ: يقلُّ همومُه، لأنَّه إذا علم أنَّهُ يموتُ عن قريبٍ لا يهتمُّ بما يستقبله من المكروه.

الثالثةُ: يجعله راضيًا بالقليلِ، لأنَّه إذا علم أنَّهُ يموت عن قريبٍ فإنَّه لا يطلبُ الكثرة وإنَّما يكون همّه همّ آخرته.

=

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) حين قال له الشيطان ولزوجه كما أخبرنا سبحانه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف].

(٢) جمهور المفسرين على أنهما قابيل وهابيل وعلى أن القاتل قابيل والمقتول هابيل مع أنه لم يرد بتسميتهما خبر عن رسولِ الله ﷺ، وقد قال النبي ﷺ: «لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ على ابن آدمَ الأولِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ القَتْلَ» البخاري (٣٣٣٥)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (١٦٧٧). تفسير سورة المائدة للشيخ مصطفى بن العدوي (٢١١).

(٣) تنبيه الغافلين (١٦٨).

الرابعةُ: أن يُنَوِّر قلبِه.

فإنَّ من طالَ أملُه عاقبَه الله تعالى بأربعة أشياء: **أولُها**: أن يتكاسل عن الطاعات، **والثاني**: أن تكثر همومُه في الدنيا، **والثالثُ**: أن يصير حريصًا على جمع المال، **والرابعُ**: أن يقسو قلبُه... فينبغي للمسلم أن يقصر أملُه فإنَّه لا يدري في أيِّ نفَسٍ يموتُ وفي أيِّ قدمٍ يموت، قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، قالَ بعضُ المفسرين: بأيِّ قدمٍ يموت.

وفي آية أخرى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر].

وقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف].

فَينبغي للمسلمِ أن يُكثر ذِكْرِ الموت فإنَّه لا غُنْيَةَ[١] للمؤمنِ من ست خصالٍ:

أُولاها: علمٌ يدلُّه على الآخرةِ.

والثانيةُ: رفيقٌ يعينُه على طاعة الله تعالى ويمنعه عن معصيته.

والثالثةُ: معرفةُ عدوِّه والحذرُ منه.

والرابعةُ: عبرةٌ يعتبرُ بها في آيات الله تعالى، وفي اختلاف الليل والنهار.

والخامسةُ: إنصافُ الخلق، كيلا يكونوا له يومَ القيامة خصماءَ.

والسادسةُ: الاستعدادُ للموت قبل نزوله، لكيلا يكون مفتضحًا يومَ القيامة[٢].

---

(١) الغنية، بضم الغين: السعة.

(٢) تنبيه الغافلين (ص: ١٦٩ - ١٧٠).

المرض الرابع والعشرون
الطيرة

الطيرةُ في اللغة: بكسرِ الطاءِ وفتحِ الياءِ، وقد تسكَّنُ: هي التشاؤمُ بالشيء، وهو مصدرُ تَطيرَ يُقَال: تطيرَ طيرةً وتخيرَ خيرةً، والطيرة كالخيرة مصدر من طير[١].

وفي الاصطلاح: الطيرة هي التشاؤم، وأصله أن العرب كانوا يعتمدون على الطير، فإذا خرج أحدهم لأمرٍ، فإن رأى الطير طار يَمنةً تيمَّن به، وإن رآه طار يَسرةً تشاءم به ورجع[٢].

والطيرةُ: مرض قلبي من أمراضِ الشبهات، أي الأمراض التي تتعلق بالمعتقد فالإنسان الذي يعتقد أنَّ مع الله أيَّ شيء- سواء أكان إنسانًا أم جمادًا أم حيوانًا- يستطيع أن يضرَّه أو ينفعَه فقد وقع في الشِّرْك، فليس لبشر- مهما كانت مكانتُه- القدرةُ على جلبِ نفعٍ لأحد أو دفعِ ضرٍّ عن أحد إلا من بعد أن يأذن الله سبحانه وتعالى، وقد أخبرنا تعالى أنَّهُ ما أصاب الإنسانَ من مصيبةٍ في نفسه أو ولده أو ماله أو في أيِّ شيء عزيز عليه، فإن

---

(١) انظر: النهاية (٥٧٤)، والتعريفات (ص: ١٤٢)، وجمهرة اللغة (٢/ ٧٦٢)، واللسان (٤/ ١١).

(٢) انظر: القاموس المحيط (٣/ ١١٦)، والفتح (١٠/ ٢٢٣).

ذلك -في الغالب- عقوبةٌ لما اقترفه من الذُّنُوبِ والمعاصي، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى]، وقد يكون الابتلاء رفعةً في الدرجات.

والكيسُ الذكيُّ من دانَ نفسَه عند نزول البلاء، لأَنَّه يعلم أنَّ الله سبحانه ليس بظلامٍ للعبيد، وما يصيبه من مصائبَ ما هو إلا عقوبات للذنوب والمعاصي، فيدفعه ذلك إِلى التوبة والرجوعِ إلى الله، أما مريضُ القلبِ ضعيفُ البصيرة، فيتَّهِمُ الآخرين ويتشاءَمُ منهم، ويعتقدُ أنهم السببُ في كل ما أصابه، ومن كانت تلك حالتُه فقد تشبَّه بعقيدة آل فرعون.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾ [الأعراف].

قال الشنقيطي: قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾: ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن فرعون وقومه إن أصابتهم سيئةٌ أي قحطٌ وجدبٌ ونحوُ ذلك، تطيَّروا بموسى وقومه فقالوا: ما جاءنا هذا الجدبُ والقحطُ إلا من شؤمِكم، وذَكَرَ مثلَ هذا عن

بعض الكفار مع نبينا ﷺ في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ﴾ الآية [٤ \ ٧٨] ، وذكر نحوه أيضًا عن قوم صالح مع صالح في قوله:﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ الآية [٢٧ \ ٤٧]، وذكر نحو ذلك أيضًا عن القرية التي جاءها المرسلون في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ الآية [٣٦ \ ١٨]، وبين تعالى أن شؤمَهم من قِبَلِ كفرهم، ومعاصيهم، لا من قِبَلِ الرسل(١).

فقد نَهى الإسلام عن التطيرِ والتشاؤمِ بمرئيٍ كان أو مسموعٍ أو زمان أو مكان، فقد يتشاءم الإنسانُ من رؤية شخص معين فيقول: اليوم الذي أرى فيه فلانًا يحدث لي كذا وكذا، يعني من المصائبِ، أو قد يعزم على أمرٍ ما فيسمع خبرًا سيئًا فإذا هو يتشاءم ويرجع عن هذا الأمرِ ويظنُّ أنَّهُ لو استمر فيه فسوف يحدث له مكروهٌ، وكذلك من النَّاسِ من يحدث له ابتلاءٌ في مكان ما أو بلد ما فيدفعُه ذلك للتشاؤم، فيعزم على عدمِ الذهابِ إلى هذا المكان أو تلكَ البلدة، وكذا الأيام أو الساعات فمن النَّاسِ من يتشاءم بيوم من أيامِ الأسبوعِ، فلا يخرج في هذا اليوم ولا يُقْبِل

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي (٢/ ٣٩)، والجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٥٣)، ومعالم التنزيل للبغوي (٣/ ٢٦٨).

على بيع أو شراء، وكل ذلك من أمور الجاهلية التي نَهى عنها الإسلام.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «**لاَ طِيَرَةَ، وَخَيْرُهَا الفَأْلُ**»، قَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟ قال: «**الكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ**»(١).

قال الخطابي: قد أَعلَمَ النبي ﷺ أن الفألَ إنما هو: أن يسمع الإنسان الكلمةَ الحسنةَ فيفأل بها، أي: يتبرَّك بها، ويتأولها على المعنى الذي يطابق اسمَها، وأنَّ الطيرة بخلاف ذلك ... واستحبَّ الفألُ بالكلمة الحسنة يسمعُها من ناحية حُسْن الظن بالله، ونُقِلَ عن الأصمعي، أنه قال: سألتُ ابنَ عون عن الفأل، قال هو أن تكون مريضًا فتسمع يا سالم، أو تكون طالبًا فتسمع يا واجد(٢).

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٧٥٤)، وأخرجه مسلم (٢٢٢٤) بنحوه من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: معالم السنن (٤/ ٢١٧) باختصار، والآداب الشرعية (٣/ ٣٥٨).

المرض الخامس والعشرون
الاستهانة بالنعمِ

النِّعم في اللغة: جمع نِعمة، والنِّعمة بالكسر اسم من: أنْعم الله عليه يُنعم إنعاماً ونِعْمَةً، أُقيم الاِسْم مُقَام الإنعام، كَقَوْلِك: أنفقت عَلَيْهِ إنفاقاً ونَفَقَةً بِمَعْنى وَاحِد[(١)].

وفي الاصطلاح: نعمة الله: مَنّه وعطاؤُه بكسر النون، وقال الله جل وعز: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ [لقمان: ٢٠]... وقد قال: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ﴾ [النحل: ١٢١][(٢)].

نعمُ الله تعالى على العباد شيء عظيم، نعم ظاهرة ونعم باطنة لا يستطيع أحدٌ عدَّهَا ولا حصرَها، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم].

«فضلاً عن قيامكُم بشكرِها: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، أي: هذه طبيعةُ الإنسانِ من حيثُ هو ظالمٌ متجرئٌ على المعاصي مقصرٌ في حقوق ربِّه كافرٌ لنعمِ الله لا يشكرُها ولا يعترفُ بها، إلا من هداه الله فَشَكَرَ نعمَه وعرفَ حقَّ ربِّه وقامَ بِه»[(٣)].

القلبُ الذي يستهينُ بنعمِ الله قلبٌ غافلٌ جاحدٌ، حُرمَ الطمأنينةُ والسكينةُ والرضا، حرمَ سعادةُ الدارين، وكيف يهدأُ ويرضي وقد استهان

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (٣/ ٩).
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: تفسير السعدي (٤٢٦).

بالنعمِ وما صُرفَ عنه من النِّقمِ، فينبغي للعاقلِ أن يجعل لنفسه ساعةً يتأمل فيها نعم الله عليه، من معافاة في بصره وسمعه وبدنه، يتأملُ نعمة الأمنِ والأمان، نعمة الطعامِ والشرابِ، نعمة المسكنِ والملبسِ، وغيرها من النِّعم بل على العاقلِ التحديقُ في كلِّ نعمة، حتى يُمَرِّنَ القلب على استشعار النِّعمِ ثم يسأل نفسه لو أنَّهُ فَقَدَ نعمةً من هذه النِّعمِ كيف يكونُ حالُه، لو فَقَدَ بصرَه أو سمعَه، أو دُمِّرَ مسكنُه أو ضُيِّق عليه في رزقه فلا يجد ما يسدُّ به جوعه وجوع أولاده كما يحدث لكثيرٍ من المسلمين في مشارق الأرضِ ومغاربها، وهذا واقعٌ لا يَخفى، كيف تكون حياتُه؟ قد علَّمَنا رِسُولُ الله ﷺ إذا أوينَا إلى الفراشِ أن نقول: «**الحَمْدُ لله الذي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوانَا فَكَمْ مِمَّنْ لاَ كَافِيَ له ولا مُؤْوِيَ**»(١) على الذي جَهِلَ نعم الله تعالى أن يتذكر أعظم النِّعم على الإطلاق ألا وهي نعمةُ الإسلامِ، فلو لم يُرْزَقْ غيرها لكانت كافيةً، بل لو عاش العبد منذ أن وُلدَ حتى مات وهو في طاعة لم يعص الله قط لما حقق شكر هذه النعمة... فتأمّل وانظر كيف أنت لو وُلدتَ كافرًا؟

«هذا مع تواترِ إحسان الله إليك على مدى الأنفاسِ: أزاحَ عللَك ومكَّنَكَ من التزود إلى جنته، وبعث إليك الدليلَ وأعطاك مُؤْنة السفرِ وما تتزود به وما تحارب به قُطَّاع الطريق عليك، فأعطاك السمع والبصر والفؤاد، وعرَّفك الخير والشر، والنافع والضارَّ وأرسل إليك رسولَه وأنزل إليك كتابَه، ويسَّرَه للذكرِ والفهم والعملِ وأعانك بمدد من جنده الكرامِ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧١٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يثبتونك ويحرسونك، ويحاربُون عدوَّك ويطردونه عنك، ويريدون منك ألَّا تميل إليه ولا تصالحَه وهم يكفونك مُؤْنَته وأنت تأبى إلا مظاهرته عليهم وموالاته دونهم، بل تُظاهره، وتُواليه دون وليِّك الحق الذي هو أولى بِك.. أمرك الله بشكره، لا لحاجته إليك ولكن لتنال به المزيد من فضله، فجعلتَ كفرَ نعمه والاستعانة بها على ما سَخِطَه من أكبر أسبابِ صرفها عنك»[(١)].

قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم].

«النعمُ ثلاثٌ:

نعمةٌ حاصلةٌ يعلم بها العبد.

ونعمةٌ منتظرةٌ يرجوها.

ونعمةٌ هو فيها لا يشعر بها.

فإذا أراد الله إتمام نعمته على عبده عرَّفَه نعمته الحاضرة وأعطاه من شكره قيدًا يقيدها به حتى لا تَشْرُدَ فإنها تَشْرَدُ بالمعصية وتُقيَّدُ بالشكرِ.

ووفَّقه لعملٍ يستجلب به النعمة المنتظرة وبصَّرَهُ بالطرق التي تسدُّها وتقطع طريقَها، ووفَّقَه لاجتنابِها، وإذا بها قد وافت إليه على أتم الوجوه، وعرَّفَه النعم التي هو فيها ولا يشعر بها.

ويُحكى: أنَّ أعرابيًّا دخل على الرشيد فقال: أمير المؤمنين ثبَّتَ الله

---

(١) ما بين القوسين من تهذيب المدارج (١٢٧).

عليك النِّعمَ التي أنت فيها بإدامة شكرِها، وحقَّقَ لك النِّعمَ التي ترجوها بحسنِ الظنِّ به ودوامِ طاعته، وعرَّفَكَ النِّعمَ التي أنت فيها ولا تَعْرِفُها لتشكرَها فأعجبَه ذلك منه وقال: ما أحسنَ تقسيمَه»[١].

الاستهانةُ بنعمة المعافاة في الدين:

لو عرَفَ أهلُ طاعة الله أنَّهم هم المنعَمُ عليهم في الحقيقة، وأنَّ لله عليهم من الشكرِ أضعاف ما على غيرهم -وإن توسدوا الترابَ ومضغوا الحصى- فهم أهلُ النعمة المطلقة، وأن من خلَّى الله بينه وبين معاصيه فقد سقطَ من عينه وهان عليه، وأن ذاك ليس من كرامته على ربِه- وإن وسَّعَ الله عليه في الدنيا ومدَّ له من أسبابِها- فإنَّهم أهلُ الابتلاء على الحقيقة.

فإذا طالبت العبدَ نفسُه بما تطالبه من الحظوظ والأقسام وأدَّته في بلية وضائقة تداركَهُ الله برحمته، وابتلاهُ ببعض الذُّنُوب فرأى ما كان فيه من المعافاة والنعمة، وأنَّهُ لا نسبةَ لما كان فيه من النِّعمِ إلى ما طلبته نفسُه من الحظوظ، فحينئذ يكون أكثر أمانيه وآماله العود إلى حاله وأن يمتعه الله بعافيته[٢].

---

(١) ما بين القوسين من كتاب الفوائد (٣٩٥).

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٨١).

المرض السادس والعشرون
استعظامُ الدنيا والاستهانةُ بمصائبِ الدين

خلقَ الله تعالى الخلقَ لغاية ذكرها سبحانه في كتابِه العزيزِ، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]، فانقسمَ الخلقُ إلى قسمين:

قسمٌ: عَلِمَ علمَ اليقين أنَّهم ما خلقوا إلا لتحقيق العبودية لله تعالى: فهم يتقلبون بين الحمد والشكرِ عند النِّعم والصبر والاحتساب عند النِّقم، علموا أن الدنيا دارُ مَمرٍّ لا مَقَرٍّ فعملوا لها بقدر بقائهم فيها وعملوا للآخرة بقدر مقامهم فيها، وهم على يقين من وعد الله ورسوله لهم بالجنة التي هي دارُ السعادة الأبدية قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة].

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله تبارك وتعالى أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خطرَ على**

قَلْبِ بَشر»[١]، وغير ذلك من النصوصِ الدالة على وعد اللهِ تعالى المؤمنين بالخلود في دارِ النَّعيمِ.

هؤلاء القومُ لا يُبالون بمصائبِ الدنيا فهم يعلمون أن عمرَها قصير وخطرَها يسير وشأنَها حقير.

فانشَغلوا بما خُلقوا من أجله فنالوا سعادة الدارين الدنيا والآخرة.

أما القسمُ الثاني: فهم الذين مَلأَ قلوبَهم حبُّ الدنيا، والهمُّ والحزنُ على فواتها، فهم لا يُبالون بمصائبِ الدين، شأنُهم في الحرصِ على الدنيا كشأن اليهود والذين أشركوا تشبَّهوا بصفاتهم وهم مسلمون قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة].

«وإنما وصف الله جل ثناؤه اليهود بأنهم أحرصُ الناس على الحياة، لعلمِهم بما قد أعدَّ لهم في الآخرة على كفرهم بما لا يُقر به أهل الشِّرك، فهم للموت أكرهُ من أهل الشِّرك الذين لا يؤمنون بالبعث، لأنهم يؤمنون بالبعث، ويعلمون ما لهم هنالك من العذاب، والمشركون لا يُصَدِّقون بالبعث ولا العقاب، فاليهود أحرص منهم على الحياة وأكره للموت»[٢].

عن الحسن قال: إذا رأيتَ الرجل ينافِسُك في الدنيا، فنافِسْه في

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٨٠)، ومسلم (٢٨٢٤)، واللفظ له.

(٢) ما بين القوسين من تفسير الطبري (٢/ ٣٧٠).

الآخرة[١].

وعن أبي سليمان الداراني: إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تَزْحَمُها وإذا كانت الدنيا في القلب لم تَزْحَمْها الاخرةُ لأن الآخرة كريمة والدنيا لئيمة[٢].

وقال أحمد بن أبي الحوراي: سمعتُ أبا سليمان يقول: ما يَسُرُّ العاقل أن الدنيا له منذ خلقت إلى أن تَفْنَى يتنعم فيها حلالًا لا يُسأل عنه يوم القيامة وأنه حُجبَ عن الله عزوجل ساعةً واحدةً فكيف بمن حُجب أيامَ الدنيا وأيامَ الآخرة[٣].

صاحبُ القلبِ المريضِ لا يتأثر بالمصيبة في الدين، فقد يكون مُبتلىً بأكل أموال النَّاسِ، أو بالنظر إلى النساء، أو بالغش والكذب والخداع لتحقيق غرض من أغراض الدنيا، أو قد يكون مُبتلىً بترك الصلاة أو الصيام أو عدم إخراج الزكاة أو ترك فريضة الحج، وقد تكون الأخت مُبتليةً بالتبرج والسفور، أو الكبر والعجب، أو بعقوق الزوج أو بسوء الخُلُق... إلى غير ذلك من مصائب الدين مع هذا لا تجد أحدًا من هؤلاء يجاهد نفسه على إصلاح دينه أو حتى يسأل عن الطريق الموصِّل إلى اللهِ فهم لا يُبالون ومع ذلك سيُسألون.

---

(١) انظر: ذم الدنيا لابن أبي الدنيا (ص: ١٨٤).
(٢) انظر: صفوة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٣٨٢).
(٣) المصدر السابق.

فالأمرُ عظيمٌ، والآيات القرآنية التي تدلُّ على ما نقول كثيرةٌ جدًّا لا يتسع المقام لسردها، لكن فقط أذكرُ قول الله تعالى في شأن الذين ظلموا أنفسهم الذين استبدلُوا الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ، قال تعالى في هؤلاء الخاسرين: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف].

وورد في الصحيحين من حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**»(١).

هذا، والذي ينتفعُ بالموعظة هم أولُو الألبابِ، وأولو العقول السديدة والقلوب الحية، كما أخبرنا بذلك ربُّنا تبارك وتعالى، قال سبحانه ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ [ق]، والله الهادي إلى سواءِ السبيلِ.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٨٦)، ومسلم (٢٣٥٩).

المرض السابع والعشرون
قلة الحياء من الله

الحياء في اللغة: يقال: حَيِيتُ من فعل كَذَا أَحْيَا حَيَاءً أَي استَحْيَيتُ... والحياءُ: التوبةُ، والحشمةُ، وقد حَيِيَ منه حياءً، واستَحْيَا واسْتَحَى [١].

وفي الاصطلاح: حياء العباد من المُنْعِم سبحانه وتعالى[٢].

قال بعض السلف: خَفِ الله على قَدْرِ قُدْرتِه عليك، واسْتَحِ منه على قَدْرِ قُرْبِه منك.

وقد يتولد الحياء من الله من مطالعة النِّعم، فيستحيي العبد من الله أن يستعين بنعمته على معاصيه، فهذا كلُّه من أعلى خِصال الإيمان[٣].

قال ابن القيم: ولهذا كان خُلق الحياء مُشتقًا من الحياة اسمًا وحقيقةً، فأكمل الناس حياةً: أكمَلُهم حياءً، ونقصان حياء المرء من نقصان حياته، فإن الروح إذا ماتت لم تحس بما يُؤلمها من القبائح، فلا تستحي منها، فإذا كانت صحيحةَ الحياة أَحَسَّت بذلك، فاستحيتْ منه، وكذلك سائرُ الأخلاق الفاضلة، والصفات الممدوحة تابعةٌ لقوة الحياة[٤].

وقال أيضًا: وكذلك الحياء في الحقيقة: إنما هو حياءُ المحبين، فإنه يتولدُ من بين الحب والتعظيم، وأما ما لا يكون عن محبة: فذلك خوفٌ

---

(١) انظر: لسان العرب (١٤/ ٢١٧-٢١٩)، والمحكم والمحيط الأعظم (٣/ ٣٩٩).
(٢) انظر: التخويف من النار (ص: ١٧).
(٣) انظر: تفسير ابن رجب (١/ ٥٤٧)، ومجموع رسائل ابن رجب (٣/ ٧٣).
(٤) مدارج السالكين (٣/ ٢٤٩)، والجواب الكافي (ص: ٦٩).

محض[١].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «**الإيمَانُ بِضعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**»[٢].

الله تعالى حييٌّ يحبُّ الحياءَ:

عن سلمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحيِي إذا رَفَعَ الرَّجُلُ إليه يَدَيْهِ أن يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ**»[٣].

«وأما حياءُ الرَّبِّ تعالى من عبده فذاك نوع آخر لا تدركه الأفهام ولا تُكَيِّفُه العقول، فإنه حياءُ كرمٍ وبرٍّ وجودٍ وجلالٍ فإنَّه تبارك وتعالى حييٌّ كريمٌ يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يرُدَّهما صِفرًا، ويستحي أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام»[٤].

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢٨).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩)، واللفظ له، ومسلم (٣٥).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٦٦)، وابن ماجه (٣١١٧). وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٨٨).

(٤) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٢٥٠).

قال المُبَارَكْفُوري: قوله: «إِنَّ اللهَ حيِيٌّ» فَعيلٌ من الحياء أي كثير الحياء ووصفه تعالى بالحياء يُحملُ على ما يليقُ له، كسائرِ صفاته نؤمن بها ولا نُكَيِّفُها[١].

عن أبي سعيدٍ الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**كان رسول الله ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنْ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا فَإِذا رَأَى شَيئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ**»[٢].

وَقَال ﷺ: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إذا لَمْ تَسْتَحي فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**»[٣].

أنواعُ الحياء:

وقد قُسِّمَ الحياءُ على عشرة أوجه[٤]: حياءُ جناية وحياءُ تقصيرٍ، وحياءُ جلال وحياءُ كرم وحياءُ حشمة، وحياءُ استصغار للنفس، واحتقار لها، وحياءُ محبة وحياءُ عبودية وحياءُ شرف وعزة وحياءُ المستحي من نفسه.

فأما حياءُ الجناية: فمنه حياءُ آدم عليه السلام لما فرَّ هاربًا من الجنة قال تعالى: أفرارً مني يا آدمُ؟ قال: لا يارب بل حياء منك.

وحياءُ تقصير: كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان يومُ القيامة قالوا: سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك.

وحياءُ الإجلال: هو حياءُ المعرفة وعلى حسبِ معرفة العبد بربِّه

---

(١) تحفة الأحوذي (٢/ ٢٦١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦١١٩)، ومسلم (٢٣٢٠).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٨٣)، من حديث أبي مسعود البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٢٥٠)، و تهذيب المدارج (٣٩٠، ٣٩١).

يكون حياؤُه منه.

وحياءُ كرمٍ: كحياء النبي ﷺ من القومِ الذي دعاهُم إلى وليمة زينبَ وطوَّلوا الجلوس عنده، فقام واستحيَى أن يقول لهم انصرفوا.

وحياءُ حشمة: كحياء عليِّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن يسأل رسول الله ﷺ عن المذي لمكان ابنته منه.

وحياءُ الاستحقار واستصغار النفسِ: كحياء العبد من ربِّه عز وجل حين يسأله حوائجَه، واحتقارًا لشأن نفسه واستصغارًا لها.

وقد يكون لهذا النوع سببان:

أحدهُما: استحقار السائلِ نفسَه، واستعظام ذنوبِه وخطاياه.

الثاني: استعظام مسؤله.

وأما حياءُ المحبة: فهو حياء المحب من محبوبِه حتى إنه إذا خَطر على قلبه في غيبته هاج الحياء من قلبه، وأحسَّ به في وجهه، ولا يدري ما سببُه، وكذلك يَعرض للمحب عند ملاقاته محبوبه ومفاجأته له روعةٌ شديدةٌ، ومنه قولهم: «**جمال رائع**» وسببُ هذا الحياء والروعة مما لا يعرفه النَّاس.

وأما حياءُ العبودية: فهو حياءٌ ممتزجٌ من محبة وخوف ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأنَّ قدرَه أعلى وأجلُّ منها فعبوديتُهُ له توجب استحياءً منه لا محالة.

وأما حياءُ الشرف والعزة: فحياءُ النفس العظيمة الكبيرة إذا صدرَ منها ما هو دون قدرها من بذل وعطاء وإحسان فإنَّه يستحي مع بذله حياءَ شرف النفس وعزة وهذا له سببان:

أحدهما: هذا.

والثاني: استحياؤُه من الآخذ حتى كأنَّه هو الآخذُ السائلُ، حتى إن بعض أهلِ الكرمِ لا تطاوعه نفسُه لمواجهته لمن يعطيه حياءً منه، وهذا يدخل في حياء التلوم لأنَّه يستحي من خجلة الآخذ.

وأما حياءُ المرء من نفسه: فهو حياءُ النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص وقناعتها بالدون، فيجد نفسَه مستحيًا من نفسه حتى كأن له نفسين يستحي بإحداهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكون من الحياء، فإنَّ العبد إذا استحَى من نفسه فهو بأن يستحيي من غيرِه أجدر. انتهى كلامه.

أين حياؤُك أيها المسلم: وأنت تجلس أمام التلفاز تشاهد وتسمع ما يُغضب اللهَ عز وجل، أين حياؤك أيها الشاب المسلم وأنت تدخل على المواقع الإباحية عبر الإنترنت تبحث عن الحرامِ وتغفل وتنسى أن الله يرى مكانك ويسمع كلامك، وهو سبحانه شهيدٌ عليك ويوم القيامة – إذا لم تتب أو يعفو عنك- سيعاقبُك على أفعالك وأقوالك المحرمة، أين حياؤك أيها الموظف المسلم وأنت تساوم عباد الله، إما يدفع لك الرشوة وإما تعطل مصلحةً هي حق له، أين حياؤك وأنت تأكل الربا وقد حرَّمه الله، أين حياؤك وأنت تكذب أمام أبنائك وزوجتك وأنت لهم قدوةٌ... أين حياؤك أيتها الأخت المسلمة حين تخرجين من بيتك سافرةً متبرجةً متعطرةً وتمرِّين بين الرجال مع اختلاف أخلاقِهم وأعمارهم وحالهم فمنهم المتزوج المحصن، ومنهم الشاب الذي لا يستطيع أن يعفَّ نفسَهُ، ومنهم المدمن للخمر والمخدرات، أي منهم الصالح والطالح... أين حياؤك، أين حياء

المسلمين؟ قَلَّ حين قَلَّ الإيمانُ من القلب ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

من عقوبات المعاصي: «ذهاب الحياء الذي هو مادةُ حياة القلب، وهو أصلُ كلِّ خير، وذهابُه ذهابُ الخير أجمعه.

وفي الصحيح عنه ﷺ، أنه قال: «**الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ**»[١][٢].

وأختتم هذا الباب بمثال عال راق في الحياء والطُّهر للمرأة المسلمة:

قال تعالى مخبرًا عن موسى عليه السلامُ عندما فرَّ من فرعون وقومه: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾ [القصص]، هذا الأدبُ يتمثلُ في حيائهما وابتعادهما عن مزاحمة ومخالطة الرجال.

واعتذرتا عن خروجهما من بيتهما واختلاطهما بالرجال بأن قالتا: ﴿وأبونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، «إبراء منهما للعُذرِ إليه عليه السلام في تولِّيهما للسَّقي بأنفسهما كأنَّهما قالتا إنَّا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مُساجلة الرِّجال ومزاحمتهم وما لنا رجلٌ يقوم بذلك وأبُونا شيخ كبير السنِّ قد أضعفَه الكِبَر فلا بدَّ لنا من تأخير السَّقي إلى أن يقضي النَّاسُ أوطارهم من الماء»[١].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧)، من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ما بين القوسين من الجواب الكافي (ص: ٦٨).

(١) انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٧/ ٨).

المرض الثامن والعشرون
كراهية ما أنزل الله

من كره ما أنزل الله جملةً وتفصيلًا فقد كَفَرَ، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩﴾ [محمد].

قال القرطبيُّ رحمه الله: أي ذلك الإضلال والإتعاس لأنَّهم: ﴿كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من الكتب والشرائع ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي ما لهم من صور الخيرات لعمارة المسجد وقِرَي الضيف وأصناف القرب ولا يقبل الله العمل إلا من مؤمن[١].

ومن تأمَّلَ أحوال المسلمين وجد فيهم من يكره أشياءَ كثيرةً مما أنزل الله في كتابِه أو جاءت في سنة نبيِّهِ ﷺ فترى الرجلَ يُصلِّي ويصوم ويتصدق ثم هو يكره شكل اللحية، ومنهم من يسبُّ أصحاب اللِّحَى وينسب إليهم السوء ظُلمًا وزورًا كراهةً في شكلِ اللحية، بل تجد من المسلمين من يعادي ولده إذا أراد أن يُصلِّي في المسجد، وقد تصِل العداوة إلى السبِّ والضربِ بل قد يطرُدُه من البيت ولو نزع غشاء الهوى والغفلة ما فعل ذلك، لأن الذي أمره بالصيامِ وفرضّ عليه الحج والزكاة وغير ذلك من شرائع الإسلام هو الذي أمر بالصلاة في المسجد، أتَى النَّبِيَّ ﷺ رجلٌ أَعْمَى، فقال: يا رسولَ الله، إِنَّهُ ليس لِي قائد يَقودنِي إلى المسجدِ، فسأل رسولَ الله ﷺ أن يُرَخِّصَ له، فيصليَ في بيتِهِ، فَرَخَّصَ له، فلما وَلَّى، دعاه، فقال: «**هَلْ تَسْمَعُ**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٢٢٥).

النِّدَاءَ بِالصَّلَاةِ؟» قال: نعم، قال: «**فَأَجِبْ**»(١).

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رسول الله ﷺ، قال: «**صلاةُ الجماعةِ أفضلُ من صلاةِ الفذِّ بِسَبعٍ وعشرِينَ درجةً**»(٢).

وفي رواية: «**بخَمسٍ وعشرِينَ درجةً**»(٣).

وغير ذلك من النصوص ولسنا بصدد تحرير مسألة فقهية.

أيضًا تجد المرأةَ مسلمةً تُصلي وتُصوم وتكره الحجاب أو تمنع ابنتها من لبسه، فتراها تجمع أقوالًا من هنا وهناك حتى تُثْبِت أنَّ الحجاب ليس من الدين، وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

واعلم أَنَّهُ لا يَصِحُّ إيمانُ عبدٍ حتى يقبل شرع الله تعالى كاملًا، وإن ترك بعض الطاعات لضعف إيمانه واستيلاء الشهوات عليه لكنه يُقِرُّ بهذه الطاعات ولا يَكرَهُها لعلمه أن الذي أمره بها هو الله سبحانه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾ [البقرة]، فقد أمر سبحانه وتعالى وعز وجل عباده المؤمنين أن يدخلوا في الإسلام كافةً أي بقبول شرائعِ الدين ولا يتركوا منها شيئًا، وأن لا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه، إن وافق الأمر المشروع هواه فعله، وإن خالفه، تركه، بل الواجب أن يكون الهوى تبعًا للدين، وأن يفعل كلَّ ما يقدر عليه، من أفعال الخير، وما يعجزُ عنه، يلتزمه وينويه، فيدركه بنيته.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٦٥٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٥)، ومسلم (٦٥٠).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٦)، ومسلم (٦٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولما كان الدخول في السلم كافة، لا يمكن ولا يُتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، أي: في العمل بمعاصي الله ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾، والعدو المبين، لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء، وما به الضررُ عليكم(١).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء].

أي يُسَلِّموا لحكمه ﷺ وطاعته التي هي طاعة لله، وذلك بانشراحِ الصدرِ ورضى النفسِ، والانقياد لأوامرِ الله ظاهرًا وباطنًا، والأدلة الدالة على وجوبِ قَبول شرع الله كاملًا دون حرجٍ كثيرةٌ جدًّا، وما ذكرناه على سبيلِ المثال لا الحصر فكيف يصحُّ إسلامُ عبدٍ مع كراهيته شيئًا أو أشياءَ أنزلها الله...؟

قال الشنقيطي: أقسم تعالى في هذه الآية الكريمة بنفسه الكريمة المقدسة، أنه لا يؤمن أحد حتى يُحَكِّمَ رسولَه ﷺ في جميع الأمور، ثم ينقاد لما حكم به ظاهرًا وباطنًا ويسلمه تسليمًا كليًا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، وبيَّن في آية أخرى أن قول المؤمنين محصور في هذا التسليم الكلي، والانقياد التام ظاهرًا وباطنًا لما حَكَمَ به ﷺ، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ﴾ الآية(٢).

---

(١) انظر: تفسير السعدي (ص: ٩٤).

(٢) انظر: أضواء البيان (١/ ٣٩٤)، وتفسير الطبري (٨/ ٥٢٤).

المرض التاسع والعشرون
سوء الظن بالله

سبق بيان معنى سوء الظن في اللغة، وفي الاصطلاح[١].

هذا المَرَضُ مرضٌ عضالٌ يُهلِكُ العبد لا محالة، ذلك لأنَّه يتعلق بمعتقده في خالقه سبحانه وتعالى وعز وجل، فإذا صحَّ معتقدُ العبد صحَّ دينُه وإذا فسدَ فسدَ دينُه، وقد أفاد وأجاد العلامة ابنُ القيمِ رحمه الله في هذا البابِ، وإليك كلامه.

قال رحمه الله[٢]: إن أعظم الذُّنُوبِ عند الله إساءةُ الظن به، فإنَّ المسيءَ به الظنَّ قد ظنَّ به خِلاف كماله المقدس وظَنَّ به ما يناقض أسماءه وصفاته، ولهذا توعَّدَ الله سبحانه الظانِّين به ظنَّ السوء بما لم يتوعد به غيرهم، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ [الفتح]، وقال تعالى لمن أنكرَ صفة من صفاته: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ [فصلت]، وقال الخليلُ إبراهيم لأبيه وقومه: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧﴾ [الصافات]، أي ما ظنُّكُم أن يجازيَكُم به إذا لَقِيتُمُوه وقد عبدتُّم غيره؟ وما ظننتم به حتى عبدتُّم معه غيره؟ وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوَجَكم ذلك إلى عبودية غيره؟ فلو ظننتم به ما هو أهلُه من أنَّهُ بكل شيء عليمٍ وهو على كل شيء

(١) راجع -إن شئت- مرض سوء الظن بالمسلمين .
(٢) الداء والدواء (١٦٣) وما بعدها باختصار.

قدير وأَنَّهُ غنيٌّ عن كل ما سواه وكل ما سواه فقير إليه، وأنه قائم بالقسط على خلقه وأنه المنفرد بتدبيره خلقه لا يَشْرَكُه فيه غيرِهُ والعالم بتفاصيلِ الأمورِ، فلا يخفى عليه خافية من خلقه، والكافي لهم وحده فلا يحتاج إلى مُعينٍ والرحمن بذاته فلا يحتاج إلى رحمته إلى من يستعطفُهُ وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء فإنَّهم يحتاجون إلى من يُعرِّفُهُم أحوال الرعية وحَوَائِجَهم ويُعينُهم على قضاء حوائجِهم وإلى من يَسترحمهم ويَستعطفهم بالشفاعة فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورةً لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور عملِهم... فإدخالُ الوسائط بينه وبين خلقه تنقصٌ بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده وَظَنٌّ به ظَنَّ السَّوء... يوضح هذا أنَّ العابد مُعَظِّمٌ لمعبوده متألِهٌ خاضع ذليل له، والرَّبُّ تعالى وحده الذي يستحق كمال التعظيم والإجلال والتألُّه والخضوع والذلِّ وهذا خالصُ حقه فمِن أقبح الظلمِ أن يُعْطَي حقُّه لغيره أو يُشرَك بينه وبينه فيه ولاسيما إذا كان الذي جُعل شريكه في حقه هو عبده ومملوكه... إلى أن ذكر قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر].

فما قَدَرَ من هذا شأنُه وعظمتُه حقَّ قدره مَن أشركَ معه في عبادته مَن ليس له شيءٌ من ذلك البتة وكذلك ما قَدَرَه حقَّ قدره مَن قال: إنه يعاقبُ عبده على ما لا يفعله العبد ولا له عليه قدرةٌ ولا تأثيرٌ له فيه البتة بل هو نفسُ فعلِ الربِّ جل جلاله، فيعاقبُ عبدَه على فعله هو سبحانه الذي جبرَ العبد عليه وجبرُه على الفعلِ أعظمُ من إكراه المخلوق للمخلوق، وإذا كان

من المستقرِّ في الفِطَرِ والعقول أن السَّيِّد لو أكرَه عبده على فعلٍ أو ألجأَه إليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحًا، فأعدلُ العادلين وأحكمُ الحاكمين وأرحمُ الراحمين، كيف يُجبِرُ العبد على فعلٍ لا يكون للعبد فيه صنعٌ ولا تأثيرٌ ولا هو واقعٌ بإرادته، بل ولا هو فعله البته ثم يعاقبُه عليه عقوبة الأبد، تعالى اللهُ عن ذلك علوًّا كبيرًا وقول هؤلاء شرٌّ من أقوال المجوسِ، والطائفتان ما قَدَرُوا اللهَ حقَّ قَدره.

وكذلك ما قَدَرَهُ حقَّ قدره من لم يصنْهُ من نَتَنٍ ولا حُشٍّ ولا مكان يرغبُ عن ذكرِه بل جعله في كلِّ مكان صانه عن عرشه أن يكون مُستويًا عليه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

وتعرجُ الملائكة والروح إليه وتنزل من عنده ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]، فصانه عن استوائه على سريرِ الملك ثم جعله في كلِّ مكان يأنفُ الإنسان بل غيره من الحيوان أن يكون فيه.

وما قَدَرَ اللهَ حقَّ قَدرِه مَن نَفَى حقيقةَ محبته ورحمته ورأفته ورضَاه وغضبه ومقته ولا مَن نَفَي حقيقةَ فعله ولم يجعل له فعلًا اختياريًّا يقوم به، بل أفعالُه مفعولاتٌ منفصلةٌ عنه، فَنَفي حقيقةَ مجيئه وإتيانه واستوائه على عرشه وتكليمه موسى من جانب الطور.

وكذلك لم يَقدُرْهُ حقَّ قَدرِه مَن جعل له صاحبةً وولدًا أو جعله

سبحانه يحلُّ في مخلوقاته[١] أو جعله عين هذا الوجود.

وكذلك لم يَقدُرْهُ حقَّ قدرِه من قال: إنَّه يجوزُ أن يعذب أولياءه ومن لم يَعْصِه طرفة عين ويُدخلهم دار الجحيم ويُنَعِّم أعداءه ومن لم يؤمن به طرفة عين ويُدخلهم دار النعيمِ وأنَّ كلا الأمرين بالنسبة إليه سواء وإنَّما الخبرُ المحض جاء عنه بخلاف ذلك، وقد أنكرَ سبحانه وتعالى من جوّزَ عليه ذلك غاية الإنكار وجعل الحكم له من أسوأ الأحكامِ.

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية].

وقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم].

وكذلك لم يَقدُرْهُ قَدرَه مَن يزعمُ أنَّهُ لا يُحي الموتى ولا يبعث مَن في القبور ولا يجمع خلقه ليومٍ يُجازى فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ويأخذ المظلوم فيه حقه من ظالمه.

---

(١) يشير إلى الحلولية الضالين الذين يقولون إن ذات الله حلت في الأشياء، تعالى الله الملك الحق عما يقولون علوًا كبيرًا.

وكذلك لم يَقدُرْهُ حقَّ قدرِه من هانَ عليه أمرُه فعصاه ونَهيُهُ فارتكبه وحقّه فضيَّعَه، وذِكْرُه فأهمله، وغفل قلبُه عنه وكان هواه آثرَ عنده من طلب رضاه، وطاعة المخلوق أهمُّ من طاعته، فلله الفضلةُ من قلبِه وقوله وعمله، هواه المقدَّمُ في ذلك لأنَّه المهمُ عنده ويستخِفُّ بنظرِ الله إليه واطِّلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه ويستحي من النَّاسِ ولا يستحي من الله ويَخشَى النَّاسَ ولا يخشَى اللهَ ويعامل النَّاسَ بأفضلِ ما يقدر عليه وإن عامل اللهَ عامَله بأهون ما عنده وأحقرِه وإن قام في خدمة من يحبّه من البشرِ قام بالجدِّ والاجتهاد وبذل النصيحة وقد أفرغ له قلبه وجوارحه وقدَّمه على مصالحه حتى إذا قام في حقِّ ربَّه- إن ساعد القدرُ- قام قيامًا لا يرضاه مخلوقٌ من مخلوقٍ مثلِه وبذل له من ماله ما يستحي أن يواجه به مخلوقٌ لمثلِه فهل قَدَرَ الله حقَّ قَدرِه من هذا وصفُه.

المرض الثلاثون
العشق

العشق في اللغة: العشق فَرطُ الحبِّ، قد عَشِقَه عِشْقًا، مثال عَلِمَه علمًا ... والعشقُ الإغرامُ بالنساء[١].

وفي الاصطلاح: لفظ الْعِشْق إِنَّمَا يسْتَعْمل في الْعرف في محبَّة الإنسان لامْرَأَة أو صبي لا يسْتَعْمل في محبَّة كمحبة الأهل والمال والجاه ومحبة الأنبياء والصالحين وهو مقرون كثيرا بِالفعلِ المحرم[٢].

من الأمراض التي تتسبب في فساد القلب: العشقُ وإذا فسد القلب فسدت نيةُ العبد وفسدت أقواله وأعماله، فلا يسلم إيمان عبد مع ابتلائه بهذا المرض، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

قال شيخ الإسلام: والمقصود هنا مرض القلب فإِنَّهُ أصل محبة النفْس لما يَضرها كمريض البدن الذي يشتهى ما يضرّهُ وإِذا لم يطعم ذلك تألم وإِن أطْعم قَوِىَ بِه المرَضُ وزاد كذلك العاشق يضرّهُ اتِّصَاله بالمعشوق مُشَاهدَةً وملامسةً وسماعًا بل ويضرُّه التفكرُ فيه والتخيلُ له وهو يشتهى ذلك فإِن

---

(١) انظر: الصحاح (٤/ ١٥٢٥)، ومجمل مقاييس اللغة (ص: ٦٦٨).
(٢) انظر: أمراض القلوب وشفاؤها لابن تيمية (ص: ٢٥).

مُنع من مُشتهاه تألَّم وتعذَّب وإن أُعْطى مشتهاه قَوِى مَرضُه وكان سببًا لزيادة الألم[١].

«وعلامةُ العشق الشِّرْكيِّ الكفريِّ: أن يقدمَ العاشق رضاء معشوقه على ربِّه وإذا تعارض عنده حق المعشوق وحظُّه وحقُّ ربِه وطاعتُه؛ قدَّمَ حق معشوقه على حق ربه وآثرَ رضاه على رضاه، وبذل له أنفس ما يقدر عليه لربِّه – إن بذل- أرداً ما عنده، استفرغ وسعهُ في مرضاة معشوقه وطاعته والتقرب إليه وجعل لربِّه- إن أطاعه- الفضلة التي تفضل من معشوقه من ساعاته.

ولا ريبَ أن هذا العشق من أعظمِ الشِّرْك وكثير منهم يصرح بأنه لم يبقَ في قلبِه موضع لغيرِ معشوقه البتة، بل قد ملك عليه قلبه كله فصار عبدًا محضًا من كل وجه لمعشوقه، ولا نسبةَ بين مفسدة هذا الأمرِ العظيمِ ومفسدة الفاحشة فإن تلك ذنبٌ كبيرٌ لفاعله حكمَ أمثاله، ومفسدة هذا العشقِ مفسدة الشِّرْك، وكان بعض الشيوخِ من العارفين يقول: لأن أُبتلَي بالفاحشة مع تلك الصورة أحبّ إليَّ من أن أُبتلَي فيها بعشق يتعبد لها قلبِي ويشغله عن الله»[٢].

«فأمَّا من ابُتلي بِالعشقِ وعفَّ وصبر، فإنَّه يُثاب على تقواه، ومن المعلومِ بأدلة الشَّرْع أنَّهُ إذا عفَّ عن المحرمات نظرًا وقولاً وعملًا وكتم

(١) انظر: أمراض القلوب وشفاؤها لابن تيمية (ص: ٢٤).
(٢) انظر: الجواب الكافي (٢٤٤) وما بعدها باختصار.

ذلك فلم يتكلم به حتى لا يكون في ذلك كلامٌ محرمٌ – إما شكوى إلى المخلوق وإما إظهار فاحشة وإما نوع طلبِ العشق- وصبر على طاعة الله وعن معصيته وعلى ما في قلبِه من ألمِ العشق، كما يصبر المصاب عن ألم المصيبة فإنَّ هَذا يكون ممن اتَّقى الله وصبر ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف]، والإنسانُ قد يبغض شيئًا فيبغِضُ لأجله أمورًا كثيرةً بمجرد الوهم والخيال، وكذلك يحب شيئًا فيحب لأجله أمورًا كثيرةً لأجلِ الوهم والخيال كما قال شاعرهم:

أُحِبُّ لِحُبِّهَا السُّودَانَ حتى ... أُحِبَّ لِحُبِّهَا سُودَ الكِلاب

فقد أحب سوداء فأحب جنس السواد حتى في الكلابِ، وهذا كلُّه مرضٌ في القلبِ في تصوره وإرادته فنسألُ الله تعالى أن يعافي قلوبنا من كل داء ونعوذ بالله من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء.

والقلب إنَّما خُلق لأجلِ حب الله تعالى، وهذه الفِطَر التي فَطرَ الله عليها عباده، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ على الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِه وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فيهَا مِنْ جَدْعَاءَ**» ثم يقول أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اقرءوا إن شئتم ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: ٣٠] (١).

والرسلُ صلى الله عليهم وسلم بُعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغيير الفطرة وتحويلها وإذا كان القلبُ محبًّا لله وحده مخلصًا له الدين لم يبتل

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٧٥)، ومسلم (٢٦٥٨).

بحب غيرِه أصلًا، فضلًا أن يُبتلَى بالعشق وحيث أُبتليَ بالعشقِ فلِنَقْصِ محبته لله وحده.

ولهذا لما كان يوسفُ محبًّا لله مخلصًا له الدين لم يبتل بذلك، بل قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف].

وأما امرأةُ العزيزِ فكانت مشركةً هي وقومها فلهذا ابتليت بالعشق وما يُبتلى بالعشق أحدٌ إلا لِنَقْصِ توحيده وإيمانه وإلا فالقلبُ المنيبُ إلى الله الخائفُ منه فيه صارفان يصرفانه عن العشقِ:

أحدهما: إنابته إلى الله ومحبته له، فإنّ ذلك ألذُّ وأطيب من كل شيء، فلا تبقي مع محبة الله محبة مخلوق تزاحمه.

الثاني: خوفه من الله، فإنَّ الخوف المضاد للعشق يصرفه، وكل من أحب شيئًا بعشق أو غير عشق فإنه يُصرفُ عن محبته بمحبة ما هو أحب إليه منه، إذا كان يزاحمُه، وينصرفُ عن محبته بخوف حصول ضرر يكون أبغضَ إليه من ترك ذاك الحبِ، فإذا كان الله أحبَّ إلى العبد من كل شيء، وأخوفَ عنده من كل شيء لم يحصل معه عشق ولا مزاحمة إلا عند غفلة أو عند ضعف هذا الحبِ والخوف، بترك بعضِ الواجبات وفعلِ بعض المحرمات فإنَّ الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فكلما فعل العبدُ الطاعة محبةً لله وخوفًا منه وتركَ المعصية حبًّا له وخوفًا منه قوي حبُّه له وخوفُه منه فيزيل ما في القلبِ من محبة غيره ومخافة غيره» [(١)].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ١٣٣-١٠/ ١٣٦) باختصار.

أضرارُ العشقِ

«إفسادُ عِشْق الصور للقلب فوق كل إفساد، بل هو خمر الروح الذي يُسْكِرُها، ويصدُّها عن ذكر الله وحبه، والتلذذ بمناجاته، والأنس به، ويوجب عبودية القلب لغيره، فإن قلب العاشق متعبد لمعشوقه، بل العشق لب العبودية، فإنها كمال الذل والحب والخضوع والتعظيم»[(١)].

ومن المعلوم أنّهُ ليس في عشق الصور مصلحةٌ دينيةٌ ولا دنيويةٌ بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدرُ فيه من المصلحة، وذلك من وجوه:

أحدهما: الاشتغال بحب المخلوق وذكرِه عن حب الرَّبِّ تعالى وذكره فلا يجتمع في القلبِ هذا وهذا إلا ويقرُّ أحدهما الآخر ويكون السلطان والغلبة له.

الثاني: عذاب قلبِه به، فإنَّ من أحبَّ شيئًا غير الله عُذِّب به ولا بدَّ كما قيل:

فَـما في الأرضِ أشـقَى مـن محـبٍّ ... وأن وجـدَ الهـوَى حلـوَ المـذاقِ
تَـــرَاهُ بَاكيًـــا في كـــلِّ حِـــينٍ ... مخافـــةَ فرقـةٍ أو لاشتيـــاقِ
فيَبْكِـــي أن نَـأوا شـــوقًا إلـيهم ... وَيَبْكِي إن دنوا حـــذرَ الفـراقِ
فتسخـــنُ عينُـه عنـد الفـراقِ ... وتسخـــنُ عينُه عند التَّـــلاقي

(١) ما بين القوسين من زاد المعاد (٤/ ٢٥٤).

والعشقُ وإن استعذَبَه صاحبُه فهو أعظم من عذابِ القلبِ.

الثالثُ: أنَّ قلبه أسير في قبضة غيره يسومه الهوان ولكن لكسرته لا يشعرُ بمصابه، قلبه كعصفور في كفِّ طفل يسومها حياض الردَى، والطفل يلهو ويلعب.

الرابعُ: أنَّهُ يشتغل عن مصالحِ دينه ودنياه، فليس شيء أضيع لمصالحِ الدينِ والدنيا من عشق الصور، أما مصالح الدينِ فإنَّها منوطَة بلمِّ شَعث القلبِ وإقباله على الله، وعشقُ الصور أعظم شيء تشعيثًا وتشتيتًا له.

وأما مصالح الدنيا فهي تابعةٌ في الحقيقة لمصالح الدينِ فمن انفرطت عليه مصالح دينه وضاعَت عليه فمصالحُ دنياه أضيعُ وأضيعُ.

الخامسُ: أنَّ آفات الدنيا والآخرة أسرعُ إلى عشاق الصور، وإذا بَعدَ القلب من الله طَرقَتْه الآفاتُ وتولاه الشيطان من كل ناحية واستولى عليه ولم يدع أذىً يمكنه إيصالُه إليه إلا أوصلَه.

السادسُ: أنَّهُ إذا تمكَّن من القلب واستحكَم وقويَ سلطانُه أفسد الذهن وأحدث الوسواس وربَّما ألحق صاحبَهُ بالمجانين الذين فسدت عقولُهم فلا ينتفعون بها.

السابعُ: فهو يُعمي عين القلبِ عن رؤية مساوئ المحبوبِ وعيوبِه فلا تَرى العينُ ذلك، ويَصمُّ أذنه عن الإصغاء إلى العذل[1] فيه فلا تسمع الأذن ذلك والرغبات تستر العيوب فالراغب في الشيء لا يرى عيوبه، حتى إذا زالت رغبتُه فيه أبصرَ عيوبه فشدةُ الرغبة غشاوةٌ على العين تمنعُ رؤية الشيء

---

(١) العذل: اللوم.

على ما هو بِه»[١].

«فإِن الذي يورثه الْعِشْقَ من نقص العقل والعلم وفساد الخلق والدين والاشتغال عن مصَالح الدين والدنيا أضعاف ما يتضمنه من جنس المحْمُود .... فلم يُوجد قطّ عشقٌ إِلَّا وضرَرُه أعظمُ من منفعَته»[٢].

(١) ما بين القوسين من الداء والدواء (٢٤٥) بتصرف.

(٢) انظر: الاستقامة لابن تيمية (١/ ٤٥٩).

محبة الزوجين

المحبة بين الزوجين من أنواعِ الحب المباحِ والمشروعِ، فلا يلامُ صاحبُها ما لم يتعد بها حدود الله، فمن الرجال من يعصي الله تبارك وتعالى إرضاءً لزوجته كمن يجمع المال من حلال وحرام ولا يُبالي فكلُّ همِّه تحقيق مطالبِ الزوجة وكذلك المرأة التي تُفَرِّط في أوامر الله تعالى لترضي زوجها فإذا أمرها بشيء يُغضب اللهَ أطاعَته وعصت ربَّها، كمن يأمر زوجته بعدمِ ارتداء الحجابِ، أو الذهاب معه في أماكن يحرم الذهاب إليها، أو أن تشاهد وتسمع ما يغضبُ اللهَ، فتراها تطيعُه خوفًا وحبًّا له، -وإن عصت ربَّها- فهذا كلُّه من المحبة المذمومة التي تجعل صاحبَها مع القوم الفاسقين، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة]، أما المحبة المحمودة بين الزوجين فهي التي لا يتعَدَّى بها الزوجان حدود وأوامر الله تعالى، وقد امتنَّ الله بهذه النعمة- نعمة التزاوج – بين الرجلِ والمرأة بقولِه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم].

«ومن آياته الدالة على رحمته وعنايته بعباده وحكمته العظيمة وعلمه المحيط ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ تُناسِبُكُم وتناسبُونَهنَّ

وتشاكِلُكم وتشاكِلُونهن ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بما رُتِّبَ على الزواجِ من الأسبابِ الجالبة للمودة والرحمة فَحَصلَ بالزوجة الاستمتاع واللذة والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم والسكونُ إليها فلا تجد بين أحد في الغالبِ مثلَ ما بين الزوجين من المودة والرحمة»[1].

(١) انظر: تفسير السعدي (٦٣٩).

المرض الحادي والثلاثون
ضعف الغيرة لله

الغَيرة في اللغة: الغَيْرَةُ بالفتح: مصدر قولك: غارَ الرجل على أهله يَغارُ غَيْراً، وغَيْرَةً، وغاراً. ورجلٌ غيورٌ وغَيرانُ، وجمع غَيورٍ غُيُرٌ، وجمع غَيْرانَ غَيارى وغُيارى[١].

وفي الاصطلاح: الغيرة غيرتان غيرة على الشيء وغيرة من الشيء: فالغيرة على المحبوب حرصك عليه، والغيرة من المكروه أن يُزاحِمَك عليه فالغيرة على المحبوب لا تتم إلا بالغيرة من المُزَاحِم، وهذه تُحْمد حيث يكون المحبوب تَقْبُح المشاركة في حبه كالمخلوق، وأما من تَحْسُن المشاركة في حبه كالرسول والعالم، بل الحبيب القريب سبحانه فلا يُتَصوَّر غيرة المزاحمة عليه بل هو حسد، والغيرة المحمودة في حقه أن يَغار المحب على محبته له أن يصرفها إلى غيره، أو يغار عليها أن يَطَّلِع عليها الغير فيفسدها عليه، أو يغار على أعماله أن يكون فيها شيء لغير محبوبه، أو يغار عليها أن يشوبها ما يكره محبوبه من رياء أو إعجاب أو محبة لإشراف غيره عليها أو غيبته عن شهود منته عليه فيها.

وبالجملة فغيرته تقتضي أن تكون أحواله وأعماله وأفعاله كلها لله وكذلك يَغار على أوقاته أن يذهب منها وقت في غير رِضَى محبوبه فهذه الغيرة من جهة العبد وهي غيرة من المُزَاحِم له المُعَوِّق القاطعِ له عن مرضاة

---

(١) انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٧٧٦).

محبوبه وأما غيرة محبوبه عليه فهي كراهية أن ينصرف قلبه عن محبته إلى محبة غيره بحيث يشاركُه في حبه ولهذا كانت غيرة الله أن يأتيَ العبد ماحرّم عليه ولأجل غيرته سبحانه حرَّم الفاحشة ما ظهر منها وما بطن لأن الخلق عبيدُه وإماؤُه فهو يَغار على إمائه كما يَغار السيد على جواريه ولله المثلُ الأعلى ويَغار على عبيده أن تكون محبتهم لغيره بحيث تحملهم تلك المحبة على عشق الصور ونيل الفاحشة منها»[(١)].

اعلم أنَّ أقوى النَّاسِ دينًا أعظمُهم غيرةً لله تعالى، فقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث المغيرةَ بن شعبةَ أَنَّهُ قال: قال سعدُ بن عبادةَ: لو رأيتُ رجلًا مع امرأتي لضربتُه بالسيفِ غير مصفح، فبلغ ذَلكِ رسَولَ الله ﷺ فقالَ: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ وَالله لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ وَالله أَغْيَرُ مِنِّي ومِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ الله حَرَّمَ الْفَواحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**»[(٢)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَغَارُ وَالْمُؤمِنُ يَغَارُ وَغَيْرَةُ الله أن يَأْتِيَ الْمُؤمِنُ مَا حَرَّمَ عليه**»[(٣)].

أما من ضّعفَت غيرته لله فلا يغضب إذا انتُهِكَت محارمُه وخالف النَّاس أوامره، ولم يسعَ لتغييرِ المنكرِ ولو بقلبِه فقد تجاوز أدنى درجات الإيمان وليعلمْ أن قلبه مريضٌ فضلًا عن أَنَّهُ مُعرَّضٌ للعنِ من الله تعالى، قال سبحانه: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ

(١) انظر: الفوائد (ص: ٣٤).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٦١).

وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ [المائدة].

قال ابن كثير: أي: كان لا ينهى أحدٌ منهم أحدًا عن ارتكابِ المآثمِ والمحارم ثم ذمَّهم على ذلك ليُحَذِّر أن يُرتكبَ مثل الذي ارتكبوه، فقال: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة] (١).

وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِن لَمْ يَسْتَطِع فَبِلِسَانِهِ فَإِن لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذلك أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»(٢) وعنه ﷺ أَنَّه قال: «**أَفْضَلُ الجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عند سُلْطَانٍ جَائِرٍ**»(٣).

فمحبُّ الله ورسوله يَغار لله ولرسوله على قدر محبته وإجلاله، وإذا خلا قلبه من الغَيرة لله ولرسوله فهو من المحبة أخلى وإن زعم أَنَّهُ من المحبين فكذب من ادَّعى محبة محبوبٍ من النَّاسِ وهو يرى غيره ينتهك حرمة محبوبِه ويسعَى في إذاه ومساخطه ويستهين بحقِّه ويستخفُّ بأمرِه وهو لا يَغار لذلك، بل قلبه بارد فكيف يصحُّ لعبد أن يدَّعِي محبة الله وهو

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٦٦٢).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٤٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ضعيف: أخرجه أبو داود (٤٣٤٤)، والترمذي (٢١٧٤)، وابن ماجه (٤٠١١).
قال الترمذي: وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . انتهى.
وقال ابن عبد البر في التمهيد (١٨/ ٥٧): ليس من الأحاديث التي لا مطعن فيها لأنه انفرد به علي بن زيد بن جدعان وقد كان شعبة يتكلم فيه.انتهى.
وقال العظيم آبادي في عون المعبود (٤/ ٢١٧): عطية العوفي لا يحتج بحديثه. انتهى.

لا يَغار لمحارمه إذا انتُهِكَت ولا لحقوقه إذا ضُيِّعَت وأقلُّ الأقسامِ أن يَغار له من نفسه وهواه وشيطانه، فيغار لمحبوبِه من تفريطه في حقِّه وارتكابِه لمعصيته.

وإذا ترحلت هذه الغيرة من القلبِ ترحلت منه المحبة بل ترحَّل منه الدين، وإن بقيت فيه آثاره، وهذه الغيرة هي أصل الجهاد والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر وهي الحائلة على ذلك، فإن خَلت من القلبِ لم يجاهد ولم يأمر بالمعروف ولم ينهَ عن المنكر، فإنَّه إنّمَا يأتي بذلك غيرةً منه لربه، ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى علامة محبته ومحبوبيته الجهادَ فقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [المائدة][1].

(١) ما بين القوسين من روضة المحبين (٢٣٦).

المرض الثاني والثلاثون
الخوفُ من غير الله

الخوف في اللغة: خَافَ الرجل يَخافُ خَوْفاً وخيفَةً ومَخَافَةً، فهو خائِفٌ، وخيفة بالكسر، وأصلُها خِوْفَةٌ وجمعها خِيفٌ: فزع[١].

وفي الاصطلاح: الخوفُ عبادةٌ قلبيةٌ لا تكونُ إلا لله وحده، وقد نَهى سبحانه وتعالى عن الخوفِ من أولياءِ الشيطان وأمرَ بخوفِه وحده فقال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران].

قالَ القرطبيُّ: فالخائفُ من الله تعالى هو أن يخاف أن يعاقبه إما في الدنيا وإما في الآخرة، ولهذا قيل: ليس الخائف الذي يبكي ويمسح عينيه، بل الخائف الذي يترك ما يخاف أن يُعذَّب عليه، ففرَضَ الله تعالى على العباد أن يخافوه فقال: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران]، وقال ﴿فَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل]، ومدحَ المؤمنين بالخوف فقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل][٢].

قال ابن أبي العز: يجب أن يكون العبد خائفًا راجيًا، فإن الخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خِيف منه اليأسُ والقنوطُ[٣].

---

(١) انظر: الصحاح (٤/ ١٣٥٨)، والقاموس المحيط (١/ ٨٠٩).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٩٢).
(٣) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (ص: ٣١٢).

فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفُه من الله وكلما ضَعفَ إيمان العبد ضَعُفَ في قلبه الخوف من الله، فتجد خوفه من المخلوق أكبر من خوفه من خالقه، وهذا واضحٌ في أقوال وأفعال كثيرة من المسلمين والمسلمات، فَترى الرجل ينافق رئيسه في العملِ مخافةَ أن يعزله من عمله، وقد يحلق الشاب لحيته خوفًا من همزِ النَّاسِ ولمزِهم إياه، أو خوفًا من هجرِ الأصحابِ أو ما أشبه ذلك، وترى الأخت تريد أن ترتدي الحجاب الشرعي ولكنَّها تخاف من الأبِ أو الأمِّ أو كليهما، وقد يأمرها الزوج بأشياءَ تغضبُ اللهَ وهي تعلم ذلك، فتطيعه خوفًا من أن يطلقها فلا تجد من يعولها، إلى غير ذلك من المخالفات الشَّرْعية التي يرتكبها المسلمون خوفًا من النَّاس.

أنواع الخوف

١ – الخوف من اللهِ.

٢ – الخوف من غير الله.

أولًا: الخوف من اللهِ:

يكون محمودًا ويكون غيرَ محمودٍ، فالمحمود ما كانت غايته أن يحول بينك وبين معصية الله، بحيثُ يحملك على فعل الواجبات وترك المحرمات فإذا حصلت هذه الغاية سكن القلب واطمأنَّ وغلب عليه الفرحُ بنعمة الله والرجاء لثوابِه، وغيرُ المحمود ما يحملُ العبد على اليأس من روحِ الله والقنوط، وحينئذٍ يتحسرُ العبد وينكمش وربما يتمادى في المعصية لقوة

يأسه[١].

ثانيًا: الخوف من غيرِ اللهِ:

النوع الأول: خوف طبيعي، كخوف الإنسان من السَّبُعِ والنَّار والغَرق، وهذا لا يُلَامُ عليه العبد قال تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨]، ولكن إذا كان هذا الخوف سببًا لترك واجبٍ أو فعلِ محرمٍ كان حرامًا كما تقدَّم[٢].

النوع الثَّاني: خوف العبادة والتذلُّلِ والتعظيم والخضوع، وهو ما يُسمَّى بخوف السِّرِّ وهذا لا يصلحُ إلا لله سبحانه وتعالى فمن أشركَ فيه مع الله غيره فهو مشركٌ شركًا أكبر، وذلك مثل من خاف من الأصنامِ أو الأموات أو من يزعمون أنَّهم أولياء يعتقدون نفعَهم وضرَّهُم، كما يفعله بعضُ عُبَّاد القبورِ يخاف صاحب القبر أكثر مما يخاف الله[٣].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٦/ ٥٣).

(٢) انظر شرح الأصول الثلاثة لابن عثيمين (ص: ٤١) بتصرف.

(٣) شرح كتاب التوحيد (٢/ ١٧).

المرض الثالث والثلاثون
التوكل على غير الله

التَّوكلِ في اللغة: إظهارُ العجزِ والاعتمادِ على غيرِكَ، والاسمُ: التُكلاَن واتَّكَلتُ عَلى فلانٍ في أَمْرِي: إذا اعتمدتُهُ[١].

من أسماء الله تعالى الوكيلُ: وهو المقيم الكفيل بأرزاق العباد، وحقيقته أَنَّهُ يستقلُّ بأمر الموكول إليه، وفي التنزيل العزيز: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا ۝٢﴾ [الإسراء].

قال أبو إسحاق: الوكيل في صفة الله تعالى: الذي توكَّل بالقيام بجميعِ ما خلق وقال بعضهم: الوكيل الكفيل ونعم الكفيل بأرزاقنا، وقال في قولهم: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران]، كَافينا اللهُ ونِعْم الكافي، كقولك: رازقُنا اللهُ ونِعْم الرازق.

المتوكلُ على الله: الذي يعلم أن الله كافلُ رزقه وأمرِه، فيركن إليه وحده ولا يتوكل على غيره.

ووكلتُ أمرِي إلى فلانٍ: أي ألجأته إليه واعتمدت فيه عليه ووكَّل فلان فلانا إذا استكفَاه أمره ثِقةً بكفايته أو عجزًا عن القيام بأمر نفسه[٢].

وفي الاصطلاح: التوكل تفويض الأمر إلى الله، وقطع النظر إلى

---

(١) لسان العرب (٩/ ٣٩٣).

(٢) المصدر السابق- باختصار.

الأسباب، وليس التوكل ترك الأسباب[١].

فالتوكل هو صدق اعتماد القلب على الله مع الأخذ بالأسباب المشروعة، وعدم الالتفات إليها بالقلب، والإيمان بأن الله سبحانه وتعالى مُقَدِّر الأشياء، ومُدَبِّر الأمور كلِّها.

قال أبو القاسم القشيري: اعلم أن التوكل محله القلب، وأما الحركة بالظاهر فلا تُنافي التوكل بالقلب بعد ما تحقق العبدُ أن الثقة من قِبَلِ الله تعالى فان تَعَسَّر شيء فبتقديره وإن تَيَسَّر فبتيسيره[٢].

وقال ابن حجر: تعاطي الأسباب لا يقدح في التوكل، والدعاء برفع الضرر لا ينافي التوكل، والتداوي لا ينافي التوكل كما لا ينافيه دفع الجوع والعطش بالأكل والشرب، وكذلك تجنب المهلكات، والدعاء بطلب العافية ودفع المضار، وغير ذلك[٣].

«الاعتماد على الله سبحانه وتعالى في حصول المطلوب ودفع المكروه مع الثقة به، وفعل الأسبابِ المأذون فيها... ولا بد من أمرين:

الأول: أن يكون الاعتماد على الله اعتمادًا صادقًا حقيقًا.

الثَّاني: فعل الأسباب المأذون فيها، فمن جعل أكثر اعتماده على الأسبابِ نَقصَ تَوكُّله على الله ويكون قادحًا في كفاية الله، فكأنَّه جعل السبب وحده هو العمدة فيما يصبُو إليه من حصول المطلوب وزوال

(١) انظر: عمدة القاري للبدر العيني (٢٣/ ٦٨)، وفيض القدير (١/ ٣٦).
(٢) انظر: شرح النووي على مسلم (٣/ ٩١)، وفيض القدير للمناوي (٢/ ٢٢٨).
(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/ ٤٧١، ٢/ ٥٠٧، ١٠/ ١٣٥).

المكروه، ومن جعل اعتماده على الله ملغيًا للأسباب فقد طعنَ في حكمة الله، لأنَّ الله جعل لكل شيء سببًا، فمن اعتمد على الله اعتمادًا مجردًا، كان قادحًا في حكمة الله؛ لأنَّ الله حكيمٌ يربط الأسباب بمسبباتها كمن يعتمد على الله في حصوله على الولد وهو لا يتزوج، والنَّبيُّ ﷺ أعظمُ المتوكلين ومع ذلك كان يأخذ بالأسبابِ، فكان يأخذ الزاد في السَّفرِ، ولما خرج إلى أُحُد ظَاهر بين درعين، أي: لبس درعين اثنين[١] ولما خرج مهاجرًا أَخذ من يدُلُّه الطَّريق[٢]، ولم يقل سأذهب مهاجرًا وأتوكل على الله ولن أصطحب معي من يدلّني الطَّريق، وكان ﷺ يتقي الحر والبرد ولم ينقص ذلك من توكله، ويذكر عن عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن قَدمَ ناسٌ من أهلِ اليمن إلى الحج بلا زاد، فجيء بِهم إلى عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فسألهم فقالوا: نحن المتوكِّلُون على الله، فقال: لستم المتوكِّلين، بل أنتم المتواكِلُون.

والتوكل نصف الدينِ، ولهذا نقول في صلاتنا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]، فنطلب من الله العون اعتمادًا عليه سبحانه بأنه سيعينُنا على عبادته وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود]، ولا يمكن تحقيق العبادة إلا بالتوكلِ، لأنَّ الإنسان لو وُكِل إلى نفسه وُكلَ إلى ضعف وعجز ولم يتمكن من القيامِ بالعبادة فهو حين يعبد الله يشعر أَنَّهُ متوكل على الله فينال

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٥٩٠) وابن ماجه (٢٨٠٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٥٩٠).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٢٦٣)، من حديث عائشة أم المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

بذلك أجر العبادة وأجر التوكل»[١].

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة]، «أي: وعلى الله فتوكَّلُوا لا على غيرِه فهو من أجمعِ أنواعِ العبادة وأعظمِها لما يَنشأُ عنه من الأعمال الصالحة فإنَّه إذا اعتمد على الله في جميعِ أموره الدينيَّة والدنيويَّة دون كل ما سواهُ صحَّ إخلاصُه ومعاملتُه مع الله تعالى.

فهو من أعظمِ منازل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة]، فلا يحصل كمال التَّوحيد بأنواعه الثلاثة[٢] إلا بكمال التَّوكل على الله كما في هذه الآية، وكما قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾ [يونس]، وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾ [المزمل]، والآيات في الأمرِ به كثيرة جدًّا»[٣].

وقال ابنُ القيمِ: والتوكل مصاحب للصادق من أول قدم يضعُه فى الطريق إلى نهايته، وكلما ازداد قربُه وقَوِىَ سيرُه ازداد توكله. فالتوكل مركب السائر الذى لا يتأتى له السير إلا به، ومتى نزل عنه انقطع لوقته، وهو من لوازم الإيمان ومقتضياته، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة]، فجعل التوكل شرطاً فى

---

(١) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد للعثيمين (٢/ ٨٢).

(٢) أنواع التوحيد ١- توحيد الألوهية، ٢- توحيد الربوبية. ٣- توحيد الأسماء والصفات.

(٣) انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص: ٣٥٢).

الإيمان، فدلَّ على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل، وفى الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾ [يونس]، فجعل دليل صحة الإسلام التوكل، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢، ١٦٠] [المائدة: ١١] [التوبة: ٥١] [إبراهيم: ١١] [المجادلة: ١٠] [التغابن: ١٣]، فذِكْرُ اسمِ الإيمان هاهنا دون سائر أسمائهم دليلٌ على استدعاء الإيمان للتوكل، وإن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه، وكلما قَوِيَ إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضَعفَ الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفًا، فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بدَّ، والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والهداية[١].

التوكل ينقسم إلى ثلاثة أقسامٍ:

الأول: توكل عبادة وخضوع، وهو الاعتماد المطلق على من توكَّل عليه بحيث يعتقد أنَّ بيده جلبَ النفعِ ودفعَ الضر فيعتمد عليه اعتمادًا كاملًا مع شعوره بافتقاره إليه، فهذا يَجبُ إخلاصُه لله تعالى، ومن صرَفَهُ لغيرِ الله فهو مشركٌ شركًا أكبر كالذين يعتمدون على الصالحين من الأموات والغائبين، وهذا لا يكون إلا ممن يعتقد أنَّ لهؤلاء تصرفًا خفيًّا في الكون فيعتمد عليهمِ في جلب المنافع ودفع المضار.

الثّاني: الاعتماد على شخصٍ في رزقه ومعاشه وغير ذلك، وهذا من

---

(١) انظر: طريق الهجرتين (٢/ ٧٥٥)، وزاد المعاد (٢/ ٤٣٣).

الشِّرْك الأصغرِ، وقال بعضهم من الشِّرْك الخفيِّ مثل اعتماد كثيرٍ من النَّاس على وظيفته في حصول رزقه ولهذا تجد الإنسان يشعر من نفسه أَنَّهُ معتمد على هذا اعتماد افتقار فتجد في نفسه من المحاباة لمن يكون الرزق عنده ما هو ظاهرٌ فهو لم يعتقد أَنَّهُ مجرد سببٍ بل جعله فوق السببِ.

الثَّالث: أن يعتمد على شخصٍ فيما فوضَ إِليه التصرف فيه، كما لو وكَّلت شخصًا في بيع شيء أو شرائه، وهذا لا شيء فيه؛ لأَنَّهُ اعتمد عليه وهو يشعرُ أنَّ المنزلة العليا له فوقه، لأَنَّه جعله نائبًا عنه، وقد وكَّلَ النَّبِيُّ ﷺ عليَّ بن أبي طالبٍ أن يذبح ما بَقِي من هَديِه[١]، ووكَّلَ أبا هريرة على الصدقة[٢] ، ووكَّلَ عروةَ بنَ الجعد أن يشتَرِي له أُضحيةً[٣] وهذا بخلاف القسمِ الثانِي، الذي يشعر بالحاجة إلى ذلك ويَرى اعتماده على المتوكَّلِ عليه اعتماد افتقار[٤].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٢١٨)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣١١) معلقًا، وقال الحافظ (٤/ ٤٨٨): ووصله النسائي والإسماعيلي وأبو نعيم.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٤٣)، من حديث عروة البارقي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) انظر القول المفيد (٢/ ٨٣).

المرض الرابع والثلاثون
ضعف الإيمانِ بالقدرِ

القدر لغة: القَدْرُ: مَبْلَغُ الشيء، وكذلك القَدَر، وَقَدَرْتُ الشَّيْءَ أَقْدِرُهُ وَأَقْدُرُهُ، والقدْر: القضاءُ الذي يقدِّره الله - عز وجل -، وهو القدَرُ أيضاً(١).

وفي الاصطلاح: ما قدَّره الله سبحانه وتعالى من أمور(٢).

الإيمانُ بالقدَر ركن من أركان الإيمان وهذا ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر]، والآيات في هذا البابِ كثيرة جدًا.

وفي حديث جبريل المشهور عندما سألَ رسول الله ﷺ ما الإيمانُ؟ فقال ﷺ: «**أن تُؤْمِنَ بالله وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَومِ الآخرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِّهِ**»(٣).

وقال ﷺ في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ على أن يَنْفَعُوكَ بشيءٍ لَمْ يَنْفَعوكَ إلا بشيءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ وَلَوْ**

---

(١) انظر: مجمل اللغة (ص: ٧٤٥)، ومقاييس اللغة (٥/ ٦٢).

(٢) انظر: فتح الباري (١١/ ٤٨٦).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٨)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

اجْتَمَعُوا على أن يَضُرُّوكَ بِشيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ رُفِعَتْ الأَقْلامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»[١].

الإيمانُ بالقدرِ على أربعة مراتبٍ:

المرتبة الأولى: الإيمان بعلم الله المحيط بكل شيء الذي لا يعزبُ عنه مثقالُ ذرة في السماوات ولا في الأرض، وأنه تعالى قد علم جميع خلقه قبل أن يخلقهم، وعلمَ أرزاقهم وآجالهم وأقوالهم وأعمالهم وجميع حركاتهم وسكناتهم وأسرارهم وعلانيتهم ومن هو منهم من أهل الجنة ومن هو منهم من أهل النار.

المرتبة الثانية: الإيمان بكتابة ذلك، وأنه تعالى قد كتب جميع ما سبق به علمه أنه كائنٌ، وفي ضمن ذلك الإيمان باللَّوحِ والقلم.

المرتبة الثالثة: الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، وهما متلازمتان من جهة ما كان وما سيكون ولا ملازمةَ بينهما من جهة ما لم يكن ولا هو كائن؛ فما شاء الله تعالى فهو كائنٌ بقدرته لا محالة وما لم يشأ الله تعالى لم يكن لعدم مشيئة الله إياه لا لعدم قدرة الله عليه، تعالى الله عن ذلك وعز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر].

المرتبة الرابعة: الإيمان بأن الله تعالى خالق كل شيء، وأنه ما من ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا فيما بينهما إلا والله خالقُها وخالقُ حركاتها

(١) صحيح، تقدم تخريجه.

وسكناتها سبحانه، لا خالقَ غيرُه ولا ربَّ سواهُ[١].

والإيمانُ بالقدر على ما وصفنا لا يُنافي أن تكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية وقدرة عليها، لأن الشَّرع والواقع دالان على إثبات ذلك له.

أمَّا الشَّرْع: فقد قال الله سبحانه وتعالى في المشيئة: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾ [النبأ]، وقال ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

وقال سبحانه في القدرة: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟﴾ [التغابن: ١٦].

وأمَّا الواقع: فإنَّ كل إنسان يعلم أنَّ له مشيئة وقدرة بهما يفعل، وبهما يترك، ويفرِّق بين ما يقع بإرادته كالمشي وما يقع بغيرِ إرادته كالارتعاش، ولكنَّ مشيئة العبد وقدرته واقعتان بمشيئة الله تعالى وقدرته لقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير].

ولأنَّ الكون كله ملكٌ لله تعالى فلا يكون في ملكه شيء بدون علمه ومشيئته.

والإيمان بالقدر على ما وصفنا لا يمنحُ العبد حجةً على ما تركَ من الواجبات أو فعلَ من المعاصي، وعلى هذا فاحتجاجُه به باطلٌ من وجوه:

---

(١) انظر: أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة = ٢٠٠ سؤال وجواب في العقيدة الاسلامية للحكمي (ص: ٧٨- ٧٩)، ومعارج القبول (٢/ ٩٢٠- ٩٤٠).

١- قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾ [الأنعام]، ولو كان لهم حجةٌ بالقدر ما أذاقَهم الله بأسه.

٢- قوله تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾ [النساء]، ولو كان القدرُ حجةً للمخالفين لم تنتفِ بإرسال الرسل؛ لأنَّ المخالفة بعد إرسالهم واقعة بقدر الله تعالى.

٣- ما رواه البخاريّ ومسلم، واللفظ للبخاري عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحدٍ إلا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنْ النَّارِ أَوْ مِنْ الجنَّةِ**» فقالَ رجلٌ من القوم ألا نتكلُ يا رسُولَ الله؟ قال: «**لا، اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ**» ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥﴾ [الليل]، وفي لفظٍ لمسلمٍ «فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له»[1] فأمر النَّبيُّ ﷺ بالعمل ونَهَى عن الاتِّكَال على القدر.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٤٧).

٤- أنَّ الله تعالى أمر العبد ونَهَاه ولم يكلْفه إلا ما يستطيع، قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولو كان العبد مُجبرًا على الفعل، لكان مكلفًا بما لا يستطيع الخلاص منه، وهذا باطلٌ ولذلك إذا وقعت منه المعصيةُ بجهل أو نسيان أو إكراه فلا إثمَ عليه لأَنَّهُ معذور.

٥- أنَّ قدر الله تعالى سرٌّ مكتومٌ لا يُعلم به إلا بعد وقوع المقدور، وإرادة العبدِ لما يفعله سابقة على فعله، فتكون إرادته الفعل غير مبنيةٍ على علم منه بقدر الله وحينئذ تَنتَفي حجته إذْ لا حجة للمرء فيما لا يعلمُ.

٦- أننا نرى الإنسان يحرص على ما يلائمه من أمور دنياه حتى يدركه ولا يعدل عنه إلى ما لا يلائمُه ثم يحتجُّ على عدوله بالقدر، فلماذا يعدِل عمَّا ينفعُه في أمر دينه إلى ما يضرُّهُ ثم يحتجُّ بالقدر؟ أفليس شأن الأمرين واحدًا؟؟

وإليك مثالًا يوضح ذلك: لو كان بين يدي الإنسان طريقان أحدهما يَنتهي به إلى بلد كلِّها فَوضى وقتل ونهب وانتهاك للأعراض وخوف وجوع، والثاني ينتهي به إلى بلد كلِّها نظام وأمن مستتب وعيش رغيد واحترام للنفوس والأعراض والأموال فأيَّ الطريقين يسلكُ؟ أَنَّهُ سيسلك

الطريق الثاني الذي ينتهي به إلى بلد النظام والأمن ولا يمكن لأي عاقل أبدًا أن يَسلُك طريق بلد الفوضَى والخوف ويحتجّ بالقدر، فلماذا يسلك في أمر الآخرة طريق النَّار دونَ الجنة، وَيحتجُّ بالقدر؟

مثالٌ آخر: نَرى المريض يُؤمرُ بالدَّواء فيشربه ونفسُه لا تشتَهِيه ويُنْهَى عن الطعام الذي يضرُّه فيتركهُ ونفسُه تشتَهِيه، كل ذلك طلبًا للشفاء والسلامة، ولا يمكن أن يمتنع عن شرب الدواء أو يأكل الطعام الذي يضرُّه ويحتجُّ بالقدر، فلماذا يترك الإنسان ما أمر الله ورسوله أو يفعل ما نَهى الله ورسوله ثم يحتجُّ بالقدر؟!

٧- أنَّ المحتج بالقدر على ما تركَه من الواجبات أو فعله من المعاصي، لو اعتدَى عليه شخص فأخذ ماله أو انتهك حرمته ثم احتجَّ بالقدر، وقال: لا تلمني فإنَّ اعتدائي كان بقدر الله، لم يقبل حجته فكيف لا يقبل الاحتجاج في اعتداء غيره عليه، ويحتجُّ به لنفسه في اعتدائه على حقِّ الله تعالى[١].

---

(١) انظر: شرح الأصول الثلاثة (٨٠- ٨٢) بتصرف يسير.

المرض الخامس والثلاثون
حب البدعة

البدعةُ في اللغةِ: بَدَعَ الشَّيءَ يَبْدَعُهُ وَابتَدَعَهُ: أنشَأَهُ وَبدَأَهُ.

والبديعُ والبدعُ: الشيءُ يكون أولًا، كما في التنزيلِ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، أي: ما كنت مبدعًا لم يتقدّمني رسولٌ، وقيل: مبدعًا فيما أقولُه، وكل عَمَلٍ عُمِلَ على غير مِثَال سبق فهو بِدعَةٌ[١].

البدعةُ شرعًا: هي ما لم يشرعْه الله ورسوله وهو ما لم يأمرْ بِه أمر إيجابٍ ولا استحبابٍ[٢].

البدع مذمومة عقلًا، وشرعًا، فالعقل الصريح يعلم أنه من المحال أن يدركَ ما يُصلح العباد إلا ربُّ العباد، فكيف يُنَزِّل نفسه منزلة المضاهي لله جلَّ في علاه؟!!

الله تعالى هو وحده الذي له التشريع، وقد وبَّخ الكفار حيث شرعوا للناس ما ليس من الدين، قال تبارك وتعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

قال الشاطبي: الشريعة جاءت كاملةً تامةً لا تحتمل الزيادة ولا النقصان؛ لأن الله تعالى قال فيها: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

---

(١) لسان العرب (١/ ٣٥٢)، والمفردات في غريب القرآن (ص: ٤٣)، والكليات (ص: ١٨٧).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ١٠٨).

وفي حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وعَظَنا رسولُ الله ﷺ موعظةً ذَرَفَت منها الأعينُ، ووَجِلَت منها القلوبُ، فقلنا: يا رسول الله، إن هذه موعظةُ مودعٍ، فما تعهدُ إلينا؟ قال: تركتكم على البيضاء، ليلُها كنهارها، ولا يزيغُ عنها بعدي إلا هالكٌ، من يعشْ منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بما عرفتم من سنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، الحديث[(١)].

وثبت أن النبي ﷺ لم يَمُتْ حتى أتى ببيان جميع ما يُحتاج إليه في أمر الدين والدنيا، وهذا لا مخالفَ عليه من أهل السنة.

فإذا كان كذلك، فالمبتدعُ إنما محصول قوله بلسان حاله أو مقاله: إن الشريعة لم تتمَّ، وأنه بَقِي منها أشياءُ يجب أو يُسْتَحبُّ استدراكُها، لأنه لو كان معتقدًا لكمالها وتمامها من كل وجه، لم يبتدعْ، ولا استدركَ عليها، وقائلُ هذا ضالٌّ عن الصراط المستقيم[(٢)].

واعلم أن حبَّ البدعة من اتِّباع الهوى، والهوى من أمراض القلوب، كما سبق بيانه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٤)، من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

(٢) الاعتصام للشاطبي (١/ ٦٣).

هَوَىٰهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

فجعل الله تعالى الأمر محصورًا بين أمرين: اتِّباع الذِّكر، واتِّباع الهوى.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، وهي مثلُ ما قبلها.

وتأَمَّلُوا هذه الآية، فإنها صريحة في أن من لم يتبع هدى الله في هوى نفسه، فلا أحدَ أضلُّ منه.

وهذا شأن المبتدع، فإنه اتَّبع هواه بغير هدى من الله، وهدى الله هو القرآن.

وما بينته الشريعة، وبينتْه الآية أن اتِّباع الهوى على ضربين:

أحدُهما: أن يكون تابعًا للأمر والنهي، فليس بمذمومٍ، ولا صاحبه بضالٍّ، كيف وقد قدَّم الهدى فاستنار به في طريق هواه، وهو شأن المؤمن التقي.

والآخر أن يكون هواه هو المقدَّم بالقصد الأول، كان الأمر والنهي تابعين بالنسبة إليه أو غير تابعين، وهو المذموم.

والمبتدعُ قدَّم هوى نفسه على هدى ربه، فكان أضلَّ الناس، وهو يظنُّ أنه على هدى.

وقال الله جل ذكره: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام].

قال القاسمي: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ يعني الأديان المختلفة أو طرق

البدع والضلالات فَتَفَرَّقَ بِكُم عن سَبِيله أي: فتفرقكم عن صراطه المستقيم وهو دين الإسلام الذي ارتضاه لعباده[١].

قال مجاهد في تفسير الآية: البدع والشبهات[٢].

قال شيخ الإسلام: أهل العبادات البدعيَّة يُزيِّن لهم الشيطان تلك العبادات، ويُبغِّض إليهم السبل الشَّرْعيَّة حتى يبغِّضَهم في العلم والقرآن والحديث، فلا يحبون سماع القرآن والحديث ولا ذكرَهُ وقد يبغِّضُ إليهم حتى الكتاب فلا يحبون كتابًا ولا من معه كتابٌ، ولو كان مصحفًا أو حديثًا.

قال عبدُ الله التَّستري: يا معشر الصوفية لا تفارقُوا السواد على البياضِ فما فارق أَحدٌ السَّواد على البياضِ إلا تَزَندَق.

وقال الجنيدُ: عِلْمُنا هذا مَبنيٌّ عَلى الكتابِ والسنة فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يُقْتدى به في هذا الشأن. اهـ.

وكثير من هؤلاء ينفرُ ممن يذكرُ الشَّرْع أو القرآن أو يكون معه كتاب أو يكتب وذلك لأَنَّهم استشعروا أنَّ هذا الجنس فيه ما يخالف طريقهم فصارت شياطينُهم تُهَرِّبُهُم من هذا كما يُهَرِّب اليهودي والنصراني ابنَه أن يسمع كلام المسلمين حتى لا يتغير اعتقادُه في دينه وكما كان قوم نوحٍ يجعلون أصابعهم في آذانهم ويستغشون ثيابهم لئلا يَسمعوا كلامه ولا

---

(١) محاسن التأويل (٣/ ٤٦٧).

(٢) انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (٣/ ٦٣).

يروه، وقال تعالى عن المشركين: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت]، وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ٤٩ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ٥٠ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ٥١﴾ [المدثر]، وما أرغب النَّاسِ في السَّماعِ البدعيِّ سماع المعازف وما أزهدهُم في السَّماع الشَّرْعيِّ آيات الله تعالى.

وكان مما زيَّنَ لهم طريقَهُم أن وجدُوا كثيرًا من المشتغلين بالعلمِ والكتبِ معرضين عن عبادة الله تعالى وسلوك سبيله إما اشتغالًا بالدنيا وإما بالمعاصي وإما جهلًا وتكذيبًا بما يحصل لأهل التألُّه والعبادة، فصار وجود هؤلاء مما يُنَفِّرُهم وصار بين الفريقين نوع من التباغضِ.. إلى أن قال: فمنهم من يظنُّ أَنَّهُ يُلقَّنُ القرآن بلا تَلْقِين، ويحكون أن شخصًا حَصل له ذلك، وهذا كذب، نعم قد يكون سمع آياتِ الله فلما صَفَّى نَفْسَه تذكَّرَها فتَلاها فإنَّ الرياضة تصقل النفس فيذكر أشياءَ كان نسيها ويقول بعضهم أو يَحكي بعضهم قال: أخذُوا عِلمهم ميتًا عن ميتٍ وأخذنا علمنا عن الحيِّ الذي لا يموت وهذا يقع لكن منهم من يظنُّ أن ما يلقى إليه من خطاب أو خاطر هو من الله تعالى بلا واسطة، وقد يكون من الشيطان وليس عندهم فرقان يفرقُ بين الرحمانيِّ والشيطانيِّ فإنَّ الفرق الذي لا يخطئ هو القرآن والسنة، فما وافق الكتاب والسنة فهو حقٌّ وما خالف ذلك فهو خطأ[(١)].

لابدَّ أن يكون القدوة في العبادة والمبين لها رسول الله ﷺ كما قال الله

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤١٢-٤١٣).

تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

قالَ الإمام أحمد: نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرَّسول ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعًا ثم جعل يتلُو ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور] (١).

وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عليه أَمْرُنَا فهو رَدٌّ**» (٢).

وفي روايةٍ: «**مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنَا هذا مَا لَيْسَ مِنْهُ فهو رَدٌّ**» (٣).

قال النووي: وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلمه ﷺ، فإنه صريح في ردِّ كل البدع، والمخترعات (٤).

قال ابن رجب: وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام، وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها كما أن حديث: «الأعمالُ بالنياتِ» ميزان للأعمال في باطنها، فكما أن كلَّ عمل لا يُرَادُ به وجه الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كلُّ عَمِل لا يكون عليه أمر الله ورسوله، فهو مردودٌ على عامله، وكل من أحدث في الدين ما لم يأذنْ به اللهُ ورسولُه، فليس من الدين في شيء (٥).

---

(١) انظر: الاعتصام (١/ ٨٨).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٧١٨)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) مسلم بشرح النووي (٦/ ٢٥٧).

(٥) جامع العلوم والحكم (ص: ١٢٤ - ١٢٥).

فصلٌ نافعٌ جدًّا عظيمُ النفعِ لكل مسلم

يُوصِلُه عن قريبٍ، وَيُسَيِّرُهُ بأخلاقه التي لا يُمكنه إزالتها، فإنَّ أصعب ما على الطبيعة الإنسانية تغيير الأخلاق التي طُبِعَت النفوس عليها وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إِنَّمَا عملوا عليها، ولم يظفر أكثرهم بتبديلها، لكن النفس اشتغلت بِتلك الرِّياضات عن ظهور سلطانها، فإذا جاء سلطان تلك الأخلاق وبرزَ: كسرَ جيوشِ الرياضة وشَتَّتَهَا واستولى على مملكة الطَّبعِ.

وهذا فصل يصل به السالك مع تلك الأخلاق ولا يحتاجُ إلى علاجها وإزالتها ويكون سيرُه أقوَى وأجلَّ وأسرعَ من سيرِ العاملِ على إزالتها.

ونقدِّم قبل هذا مثلًا نَضْرِبُه مطابقًا لما نُرِيدُه وهو: نَهرٌ جَار في صببه ومنحدرِه، ومُنْتَهٍ إلى تغريقِ أرض وعمران ودور، وأصحابُها يعلمون أَنَّهُ لا ينتهي حتى يخربَ دورهم ويتلفَ أراضيهم وأموالهم فانقسموا ثلاثَ فرق.

فرقةٌ صَرَفَتْ قُوَاها وقوى أعمالها إلى سَكْرِه وحبسه وإيقافه، فلا تصنع هذه الفرقةُ كبيرَ أمرٍ فإنَّه يوشك أن يجتمع ثم يحمل على السَّكرِ فيكون إفسادُه وتخريبُه أعظمَ.

وفرقةٌ رأت هذه الحالة وعلمت أَنَّهُ لا يُغني عنها شيئًا فقالت: لا خلاص من محذوره إلا بقطعه من أصل الينبوعِ، فرامت قطعه من أصله فتعذر عليها ذلك غايةَ التعذر وأبت الطبيعة النهرية عليهم ذلك أشدَّ الإباء

فهم دائمًا في قطع الينبوع وكلما سدُّوه من موضع نبَع من موضع فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهرِ من الزِّرَاعات والعمارات وغرس الأشجار.

فجاءت فرقةٌ ثالثةٌ خالفت رأي الفرقتين وعلموا أنَّهم قد ضاع عليهم كثير من مصالحهم فأخذوا في صرف ذلك النَّهرِ عن مجراه المنتهي إلى العمران فصرفوه إلى موضعٍ يَنتفعُون به، فأنبتَ أنواع العشب والكلأ والثمار المختلفة الأصناف، فكانت هذه الفرقةُ هم أصوب الفرق في شأن هذا النَّهر.

فإذا تبيَّن هذا المثلُ فالله سبحانه قد اقتَضت حكمتُه أن رَكَّب الإنسان – بل وسائر الحيوان- على طبيعة محمولة على قوَّتين: غضبية وشهوانيَّة وهي الإراديَّة، وهاتان القوَّتان هما الحاملتان لأخلاق النَّفسِ وصفاتها وهما مركوزتان في جبلة كل حيوان فبقوة الشهوة والإرادة يجذبُ المنافع إلى نفسه وبقوة الغضب يدفعُ المضار عنها.

فإذا عجز عن ذلك الضَّار أورثَه قوة الحقد، وإن أعجزه وصول ما يحتاجُ إليه ورأى غيره مُستبدًا به أورثه الحسد فإن ظفر به أورثته شدة شهوته وإرادته خُلُق البخلِ والشّحِ وأن اشتدَّ حرصُه وشهوتُه على الشيء ولم يمكنه تحصيله إلا بالقوة الغضبية، فاستعملها فيه أورثَه ذلك العدوان والبغي والظلم ومنه يتولد الكبر والفخر والخيلاء فإنَّها أخلاق متولدة من بين قوتي الشهوة والغضب وتزوَّج أحدُهما بصاحِبه.

فإذا تبيَّن هذا فالنَّهر مثال هاتين القوتين وهو مُنصَبٌّ في جدول

الطبيعة ومَجرَاها إلى دُور القلبِ وعمرانه، وحواصله يخرِّبُها ويتلفُها ولابدَّ. فالنفوسُ الجاهلة الظالمة تركته ومجراه فخرَّبَ ديار الإيمان وقلعَ آثاره وهدَمَ عمرانه وأنبتَ موضعها كلَّ شجرة خبيثة من حنظل وضريع وشوك وزقوم، وهو الذي يأكله أهل النَّار يوم القيامة يوم المعاد.

وأمَّا النفوس الزكيَّة الفاضلة: فإنَّها رأت ما يؤول إليه أمر هذا النهرِ، فافترقوا ثلاث فرق.

فأصحاب الرياضات والمجاهدَات والخلوَات والتمرينات راموا قطعه من ينبوعه فأبت عليهم ذلك حكمة الله تعالى وما طبع عليه الجبلة البشرية ولم تنقَدْ له الطبيعة، فاشتدَّ القتال ودامَ الحرب وحمي الوطيس وصارت الحرب دولًا وسجالًا وهؤلاء صرفوا قواهم إلى مجاهدة النفس على إزالة تلك الصفات، وفرقة أعرضُوا عنها وشغلوا نفوسهم بالأعمال ولم يجيبوا دواعي تلك الصفات مع تخليتهم إياها على مجرَاها، لكن لم يمكنوا نهرها من إفساد عمرانهم بل اشتغلوا بتحصينِ العمران وإحكام بنائه وأساسه ورأوا أن ذلك النهر لا بد أن يصل إليه، فإذا وصلَ وصلَ إلى بناء محكمٍ فلم يهدمه، بل أخذ عنه يمينًا وشمالًا فهؤلاء صرفوا قوة عزيمتهم وإرادتهم في العمارة وإحكام البناء، وأولئك صرفوها في قطعِ المادة الفاسدة من أصلها، خوفًا من هدم البناء، إذا تَبيَّن هذا، فهذه الفرقة الثالثة رأت أن هذه الصفات ما خُلقَت سُدًى ولا عبثًا وأنَّها بمنزلة ماء يُسقى به الورد والشوك والثمار والحطب وأنها صوان وأصداف لجواهرِ منطوية عليها، وأن ما خاف منه أولئك هو نفس سببِ الفلاحِ والظفرِ،

فرأوا أن الكبر نهر يُسقَى به العلوُّ والفخرُ والبطرُ والظلمُ والعدوانُ ويُسقَى به علُوُّ الهمة والأنفةُ والحميةُ والمراغمةُ لأعداء الله وقهرِهم والعلُوُّ عليهم، وهذه درة في صدفته فصرفوا مَجرَاه إلى هذا الغراس واستخرجوا هذه الدرة من صدفته وأبقوه على حاله في نفوسهم، لكن استعملُوه حيث يكون استعماله أنفع، وقد رأى النَّبِيُّ ﷺ أبَا دُجانة بين الصفين، فقال: «إنَّها لمشيةٌ يبغضُهَا الله، إلا في مِثل هذا الموضعِ» فانظر كيف خَلَّى مَجرى هذه الصفة وهذا الخلق يَجري في أحسن مواضعه.

وفي الحديث الآخر - وأظنّه في المسند: «إنَّ من الخُيَلاء ما يُحَبّها الله وما يبغِضُها الله، فالخيلاء التي يحبها الله: اختيال الرجل في الحرب وعند الصدقة».

فانظر كيف صارت الصفة المذمومة عبوديةً؟ وكيف استحال القاطع موصلًا؟

فصاحب الرياضات والعامل على قطع أصول هذه الصفات مجتهد على قطع مادة الخيلاء والكبر، وهذا قد أقرها في موضعها وأعدَّها لأقرانها، وهو مصرِّفٌ لها في مصرف يُعينه على مَطلبه يُوصله إليه.

وكذلك خُلُقُ الحسد فإنه لا يُذَمُّ، وهو كالصدفة لدرة الغبطة والمنافسة، كما قال النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح: لا حَسَدَ إلَّا في اثنتين: رجُلٌ آتاه الله مالًا فَسَلَّطَه على هَلَكَتِه في الحقِّ، ورجُلٌ آتاه الله القرآن، فهو يقوم بِه آنَاءَ اللَّيل، وأَطرَافَ النَّهَار، فالحسدُ يوصِّل إلى المنافسة التي يحبها

الله ويأمر بها في قوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين]، فلا تعمل على إعدام هذا الخلق من نفسك، بل اصرِفْه إلى الحسد المحمود، الحامل على المنافسة في الرتب العالية وتزاحم أهلها بالركب، نعم لا تتمَنَّ زوال نعمة الله عن عبد فتزول عنك ويبقيها عليه.

وكذلك خُلُق الحرص، فإنه من أنفع الأخلاق وأَوْصَلها إلى كل خير، وشدةُ الطلب بحسب قوة الحرص، فلا تعمل على قطعها، ولكن علِّقْها بما ينفع النفس في معادها، ويُكَمِّلُها ويزكيها، كما قال النبي ﷺ: احرصْ على ما يَنْفَعُك، واسْتَعِنْ بالله ولا تَعْجَزْ، فقوة الحرص لا تذمُّ، وإنما يذمُّ صرفُها إلى ما يضرُّ الحرص عليه، أو لا ينفع وغيره أنفع للعبد منه.

وكذلك قوةُ الشهوة من أنفع القوى للعبد، وأَوْصَلها إلى كماله وسعادته، فإنها تُثمر المحبة، وبحسب شهوة العبد للكمال يكون طلبُه له، وبحسب قوة شهوته للذة العيش ووصال الأحبة وقرة العين يكون طلبُه لذلك في الجنة إن كان مؤمنًا بها موقنًا مصدقًا.

فصدقُ الشهوة وقوتُها تحملُه على بيع مشتهًى دنيءٍ خسيسٍ بمشتهًى أعلى منه، وأجلِّ، وأرفع.

وكذلك قوةُ الشح والبخل محمودة جدًا نافعةٌ للعبد، فإنها تحملُه على

بخله وشحه بزمانه ووقته وأنفاسه أن يضيِّعها ويسمح بها لمن لا يساوي، ويشِحُّ أيضًا غاية الشح على حظه ونصيبه من الله أن يبيعَه أو يهبَه لأحد من الخلق، ويشِحُّ أيضًا بماله ويبخلُ به كلَّ البخل أن لا يكون في ميزانه، وأن يتركَه لغيره يتنعمُ به ويفوته هو أجرُه وثوابُه[1].

مما تقدَّم يتبيَّن لنا أن محاولةَ اقتلاع الطَّبع البشريِّ من جذوره محالٌ، لأنَّه ليس في مَقْدُور العبد فضلًا على أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق شيئًا عبثًا، فالحكمة الإلهية اقتضت وجود هذه الطبائع في الإنسان، ومن الحكمة جهادُ النفس حتى يستعمل كلُّ عبد ما به من طبائع خبيثةٍ أو أمراضٍ مهلكةٍ استعمالًا شرعيًّا.

وأذكرُ مثالاً تأكيدًا لما سبق بيانه:

إنسان يحبُّ كثرة الكلام ويتقن الحوار والحديث وقد يكون مع ذلك عنده قبولٌ فينجذبُ النَّاسُ لسماعه، هذا الإنسان إذا لم ينتبه لما يقول حتمًا سيقعُ في اللغو فضلًا عن آفات اللسان الأخرى من الغيبة والنميمة والكذب والحلف بغير الله... وما أشبه ذلك، فمن الحكمة أن يتعلمَ العلمَ الشَّرْعيَّ الصحيحَ ويشتغل بالدعوة إلى دين الله ونفع المسلمين، وبهذا

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٦-٤٣).

يكون قد استعملَ هذه النعمة – نعمة الكلام والقول- في كسب الحسنات بدلًا من أن يستعملها في جلب السيئات المهلكات.

ومثالٌ آخرُ: رجلٌ أوتي جدلًا فبدلًا من أن يجادل لينتصر لنفسه ويتفوق على خصمه ويكون هذا كلُّ همَّه، فإن كان عاقلًا استعملَ هذه الصفة في جدال أعداء الدين والعصاة من المسلمين بالتي هي أحسن حتى يُظْهِرَ محاسن هذا الدين ويذُبَّ عن الإسلام وعن نبيِّنا ﷺ شرط ذلك أن يكون عندهُ العلمُ الشَّرْعيّ الصحيح والنية الصالحة، فإن وُفِّق لذلك فهذا خيرٌ له من الدنيا وما فيها، قال رسول الله ﷺ لعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَوالله لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خيرٌ لَكَ مِنْ أن يكون لَكَ حُمْرُ النَّعَم**[(١)]»[(٢)].

وهكذا يستطيع كلُّ عبدٍ مخلصٍ صادقٍ متبرئٍ من حوله وقوته معتمدًا على حول الله وقوَّته أن يبدِّل أمراض قلبه وآفات نفسه صفاتٍ تجلبُ له الخير والسعادة في الدنيا والآخرة والموفَّقُ من وَفَّقَهُ الله.

---

(١) حمر النعم: هي الإبلُ الحمْرُ، وهي أنفسُ أموالِ العرب- شرح مسلم للنووي (٨/ ١٩٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦)، من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

العلاج

ما خلق الله سبحانه وتعالى وعز وجل داءً إلا وجعل له دواءً فقد يصاب العبد بمرضٍ أو أكثر من أمراضِ القلوبِ التي أوردناها في هذا البحث فإن لم يبادرْ ويسعَ ويبحثْ عن دواءٍ هلكَ، فمن رحمة الله تعالى أن جعل لنا أدويةً لعلاجِ أمراضِ قلوبنا منها ما تقدَّم في البحث الذي سقته آنفًا ومنها.

أولًا: تلاوة القرآن بالتدبرِ والتفكرِ:

الله سبحانه وتعالى يدعُو عباده في القرآن إلى معرفته وإلى عبادته وحده، وهذا لا يكون إلا بالتدُّبرِ والتفكُّرِ في آياته الكونيَّة والشَّرْعيَّة[1] التي فيها صلاح القلوبِ.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، لا ريبَ أنَّ تدبر القرآن من أنفعِ الأدويةِ لعلاجِ أمراضِ القلوبِ قد أخبَر بذلك سبحانه وتعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ

---

(١) الآيات الكونية: كخلق السموات والأرض والجبال والبحار وغير ذلك، أما الآيات الشَّرعية: هي الخاصة بالتكليف.

وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس].

«القرآن شفاء لما في الصدور من أمراضِ الشهوات الصادَّة عن الانقياد للشرعِ، وأمراضِ الشبهات القادحة في العلمِ اليقينيِّ، فإنَّ ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب والوعد والوعيد مما يوجبُ للعبد الرغبة والرهبة، وإذا وُجِدَت فيه الرغبةُ في الخيرِ والرهبةُ من الشَّرِّ ونمتا على تكررِ ما يَردُ إليها من معاني القرآن، أوجب ذلك تقديم مراد الله على مراد النَّفسِ، وصار ما يُرضي الله أحبَّ إلى العبد من شهوة نفسه.

وكذلك ما فيه من البراهين والأدلة التي صرفَها الله غاية التصريف وبيَّنَها أحسنَ بيان مما يزيل الشبه القادحة في الحقِّ ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين، وإذا صحَّ القلب من مرضه ورفلَ بأثوابِ العافية تبعتُه الجوارحُ كلُّها، فإنَّها تصلح بصلاحه وتفسدُ بفساده»[1].

إذا أردتَ الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعَك واحضر حضورَ مَن يخاطبُه به من تكلَّم به سبحانه منه إليه، فإنه منه لك على لسان رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق]، فقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾، فهذا هو المحلُّ القابل والمراد به القلبُ الحيُّ الذي يعقل عن الله كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس]، أي حيَّ القلبِ، وقوله: ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي وجَّهَ سمعَه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثرِ بالكلام.

---

(١) انظر: تفسير السعدي (٣٦٧).

وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي شَاهِد القلبِ حاضر غير غائبٍ.

قال ابن قتيبةَ: استمع كتاب الله وأنت شاهدُ القلب والفهم ليس بغافل ولا ساهٍ، وهو إشارة إلى المانعِ من حصول التأثيرِ وهو سهو القلبِ وغيبته عن تعقُّلِ ما يقال له والنظرِ فيه وتأمُّله[١].

«فلا شيءَ أنفعُ للقلبِ من قراءة القرآن بالتدبُّر والتفكُّر فإنه جامع لجميعِ منازل السائرين، وأحوال العاملين ومقامات العارفين وهو الذي يُورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياةُ القلبِ وكمالُه.

وكذلك يَزْجرُ عن جميعِ الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلبِ وهلاكُه، فلو علم النَّاس ما في قراءة القرآن بالتدبرِ لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها.

فإذا قرأَه بتفكُّرٍ حتى مرَّ بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبِه، كرَّرَها ولو مائةَ مرة ولو ليلة، فقراءة آية بتفكُّرٍ وتفهُّم خير من قراءة ختمة بغيرِ تدبُّر وتفهُّم، وأنفعُ للقلب وأَدعَى إلى حصولِ الإيمان وذوق حلاوة القرآن وهذه كانت عادةُ السَّلف يردُ أحدُهم الآية إلى الصباح»[٢].

ثانيًا: اتباعُ رسول الله ﷺ ومصاحبةُ أهلِ العلمِ والفضلِ:

«فذلك يُورثُ تقاربًا بين قلب الشخص وقلبِ أهل الخير والفضل والعلم والصلاح.

---

(١) انظر: الفوائد (٧) باختصار.

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧).

وابتداءً فإنَّ الله أمرنا بالتأَسِّي بنبيِّه ﷺ فقال الله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾ [لقمان: ١٥]، ونَهى الله عن التَّشَبُّه بأهل الكفر وعن سلوك سبيلهم قال تعالى:﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس].

فالاتفاق في الظَّاهر يجلب اتفاقًا في الباطن- في الغالب- وكذلك فالاختلاف في الظاهرِ يَجرُّ إلى اختلاف القلوب ففي الصحيح من حديث أبي مسعودٍ قال: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: «**استَوُوا ولا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ**»(١).

وفي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ الله بين وُجُوهِكُمْ**»(٢).

ولذلك تَرى مثلًا المتشابهين في زِيِّهم ولباسهم وسمتهم أقرب إلى بعضهم البعض فترى من يلبسُ الثوب الأبيض يحِنُّ إلى من يلبس الثوب الأبيض ومن تَرتدي النقاب تحنُّ إلى من ترتدي النقابِ إذا رَأتها في طريق، وكذلك إذا كان شخصٌ ملتحٍ تجده يحنُّ إذا وجد شخصًا متلحيًا مثلَه

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٣٢).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧١٧)، ومسلم (٤٣٦).

ويُقْبِلُ عليه، وهكذا في غالبِ الأحوال، فمن تشبَّهَ برسول الله ﷺ وبأهل الصَّلاح نَجِد قلبه مُتَّجِهًا إليهم، وكذلك من تَسمَّى وتَشبَّه بأَهل الشَّرِّ والفساد.

فحتى يسلمَ لك قلبُكَ، فليكنْ تشبُّهُك برسول الله ﷺ ما دُمت تستطيع ذلك في سمتك وفي لباسك وفي عبادتك وفي صبرك وحلمك وفي سائرِ أحوالك فإن ذلك يُورثُك تقاربًا من نبيِّك محمدٍ ﷺ وتقاربًا من أهلِ الخير والصلاح والفضل والعفاف، وما التوفيق إلا بالله[١].

ثالثًا: إدامةُ النظر في أحاديث رسول الله ﷺ:

النظر في سنة رسول الله ﷺ وتدبُّرُها من أنفع الأدوية لعلاج أمراض القلوب، وخاصةً الأحاديث التي تحثُّ العبد على الزهد في الدنيا الفانية وأيضًا أحاديث الترغيب والترهيب، الترغيب في الجنة وما أعدَّ الله فيها لعباده الصالحين، والترهيب من النَّار وما فيها من العذاب الأليم المهين، ونذكر هنا بعضًا منها عسى أن ينتفع بها المؤمنون والمؤمنات:

قال رسول الله ﷺ: «**كُنْ في الدنيا كأنكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»[٢].

وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباحَ وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساءَ وخذ من صحتِك لمرضِك ومن حياتِك لموتِك.

---

(١) انظر: شفاء القلوب للشيخ مصطفى بن العدوي (١٠٤).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤١٦)، من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**اللهمَّ لاَ عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخِرَهْ**»(١)، وعن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت النَّبِيَّ ﷺ يقول: «**لَوْ كان لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لابْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا ولا يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إلا التُّرَابُ وَيَتُوبُ الله على مَنْ تَابَ**»(٢).

وعن سهلِ بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ النَّبِيَّ ﷺ يقول: «**مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدنيا وَمَا فيهَا وَلَغَدْوَةٌ فِي سَبيلِ الله أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنْ الدنيا وَمَا فيهَا**»(٣).

عن أَبِي سعيد الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ ناسًا من الأنصار سألُوا رسول الله ﷺ فلم يسأَلْه أحدٌ منهم إلا أعطَاه حتى نَفِدَ ما عنده، فقال لهم حين نَفِدَ كلُّ شيءٍ أنفقَ بيديه: «**مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ لَا أَدَّخِرُهُ عنكُمْ وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَعِفَّ يُعِفَّهُ الله وَمَنْ يَتصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله وَلَنْ تُعْطَوْا عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ**»(٤).

وعن أبِي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**»(٥).

وقال ﷺ: «**أَصْدَقُ بَيْتٍ قاله الشَّاعرُ: أَلا كُلُّ شَيْءٍ مَا خلَا اللهَ**

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤١٣)، ومسلم (١٨٠٥).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٣٦)، ومسلم (١٠٤٩).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤١٥)، ومسلم (١٨٨١) مختصرًا.
(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٧٠)، ومسلم (١٠٥٣).
(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٨٥).

باطلٌ»[١].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَانت ناقةٌ لرسولِ الله تُسمَّى العضباءَ وكانت لا تسبقُ فجاءَ أعرابيٌّ على قَعُودٍ له فسبقهَا فاشتدَّ ذلك على المسلمين، وَقَالُوا: سَبقت العضباء؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ حَقًّا على الله أَلَّا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنْ الدنيا إلا وَضَعَه**»[٢].

وعن أنسِ بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ يَتْبَعُهُ أَهْلُه وَمَالُه وَعَمَلُه فَيَرْجِعُ أَهْلُه وَمَالُه وَيَبْقَى عَمَلُه**»[٣].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلا**» قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فقلت: يا رسولَ الله الرجالُ والنساءُ ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ؟ فقال: «**الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أن يُهِمَّهُم ذَاكِ**»[٤].

وقال ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلا وَسَيُكَلِّمُهُ الله يَوْمَ الْقِيامَةِ لَيْسَ بين الله وَبينهُ تُرْجُمَانٌ ثم يَنْظُرُ فَلَا يَرَى شَيئًا قُدَّامَهُ ثم يَنْظُرُ بين يَدَيْهِ فَتسْتَقْبِلُهُ النَّارُ فمن اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أن يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»[٥] وفي رواية: «**اتَّقُوا النَّارَ**

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٨٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠١).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠).

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

(٥) متفق عليه: البخاري (٦٥٣٩)، ومسلم (١٠١٦)، من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فمن لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمةٍ طَيِّبَةٍ »[١].

وعن ابنِ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صَارَ أَهْلُ الجَنَّةِ إلى الجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ إلى النَّارِ جِيءَ بِالمَوْتِ حتى يُجْعَلَ بين الجَنَّةِ وَالنَّارِ ثم يُذْبَحُ ثم يُنَادِي مُنادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ لاَ مَوْتَ وَيا أَهْلَ النَّارِ لا مَوْتَ، فَيَزْدَادُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَرَحًا إلى فَرَحِهِمْ وَيَزْدادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إلى حُزْنِهِمْ»[٢].

وعن أَبِي سعيد الخدريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله تبَارَكَ وَتَعَالَى يَقولُ لأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ فَيَقُولُونَ لَبَيْكَ ربَّنَا وَسَعْدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ فيَقُولُونَ وَمَا لَنا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فيَقُول: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذلك قَالُوا: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذلك؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبدًا»[٣].

وعن أَبِي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «مَا بين مَنْكِبَيْ الْكَافِرِ مَسِيرةُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ للرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ»[٤].

وعن أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: أصيبَ حارثةُ يومَ بدرٍ وهو غلامٌ، فجاءت أُمُّهُ إلى النبي ﷺ فَقَالَتْ: يَا رسول الله، قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي، فَإن يَكُ

(١) متفق عليه: البخاري (٦٥٤٠)، ومسلم (١٠١٦).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٤٨)، ومسلم (٢٨٥٠).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).
(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٥١)، ومسلم (٢٨٥٢).

في الجَنَّةِ، أَصْبِرْ وَأَحْتَسِبْ، وَإن تَكُنِ الأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ. فَقال: «**وَيْحَكِ، أَوَهَبِلْتِ، أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ لَفِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ**»(١).

وعن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا**»(٢).

فاعتَبِرُوا يا أُولي الأبصار والعقول، أيُّ عاقلٍ يترك هذا النعيم المقيم ويعرِّضُ نفسَه للعذاب الأليم فالشهوات تَمضي وتَبقي التّبعات...

فاحذر أعداءَك الثلاثة: النفس والشيطان والدنيا، جميعُهم يتربَّصون بِك ليهلكُوك.

رابعًا: ذكر الله تبارك وتعالى:

لا شكَّ أنَّ القرآن أفضل أنواعِ الذِّكْرِ إذ به تطمئن القلوب وبه يزداد الإيمان ويحصل اليقين المنافي للشَّك، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد] (٣) وقد تقدَّم الكلام عن أهمية تلاوة القرآن وتدبّره فهو أقوَى علاج لأمراض القلوب.

وما نحن بصدده هو الذِّكْر المقصود به التسبيح والتحميد والتهليل

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٥٠).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٥٢)، ومسلم (٢٨٢٧)، من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) قال مجاهد وقتادة وغيرهما: بالقرآن. انظر: تفسير القرطبي (٩/ ٣٢٣).
وثم أقوال أخر لمعنى الذكر والذي ليس فيه شك أن القرآن يسمى ذكرًا، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ [طه: ١٢٤] قال القرطبي: أي ديني وتلاوة كتابي، والعمل بما فيه. انظر: أحكام القرآن (١١/ ٢٧٥).

والتكبير، ذِكْرُ العبد رَبَّه على كل حال وفي كلِّ وقت، قال تعالى مثنيًا على الذاكرين والذاكرات: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، إلى قوله ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٣٥﴾ [الأحزاب].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وأمرنا الله تعالى بكثرة الذِّكْر فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ [الأحزاب]، وقال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥﴾ [الأنفال]، وكان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه(١).

وقد جاء في السنة المطهرة أحاديثُ كثيرة جدًّا تحثُّ العبد وترغِّبُه في ذكرِ الله تبارك وتعالى نذكُر منها:

«يَقُولُ الله تعالى: أَنَا عندَ ظَنِّ عَبْدِي بي وَأَنَا مَعَهُ إذا ذَكَرَني فَإن ذَكَرَني في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسي وإن ذَكَرَني في مَلإٍ ذَكَرْتُهُ في مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإن تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إليه ذِرَاعًا وَإن تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إليه بَاعًا، وَإن أَتَانِي يَمشي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»(٢).

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٧٣)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعن أبِي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فمر على جبل يُقَال له جُمْدَانُ فقال: «**سِيرُوا هذا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**» قَالُوا: وَمَا المفَرِّدُونَ يَا رسول الله؟ قال: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ**»(١).

وعن أبِي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن أَقُولَ سُبْحَانَ الله، وَالحَمْدُ لله، ولا إِلَهَ إلا الله، والله أَكْبَرُ؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عليه الشَّمْسُ**»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «**لاَ يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ عز وجل إلا حَفَّتْهُمُ الملائِكَةُ، وَغشيتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنزَلَتْ عليهمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ الله فيمَنْ عنده**»(٣).

فالسكينة والرحمة تتنزلان عند ذكرِ الله سبحانه وتعالى وعز وجل، لاسيما إذا جمع العبد قلبه مع لسانه عند الذِّكْرِ، فبالذِّكْرِ يُحَرِّز العبد نفسَه من الشيطان، فهو العدو الأول لابن آدم، فهو يدخل عليه من بابِ الغفلة فإذا دخل عليه ظَفَرَ بِه وأفسد عليه قلبَه فإن ذَكَر الله مع حضور القلبِ خنس وبَعدَ، فَيحْدثُ له من صفاء القلب ما لم يحدث لغيره.

خامسًا: الإيمان بقدر الله تعالى والرضا بقضائه:

اعلم أنَّ الإيمان بقدر الله والرِّضا بقضائه من أسباب شفاء القلب،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٧٦).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٩٥).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٠٠)، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فضلًا عن ما يحصل للعبد من السعادة في معاشه، ومعاده، إذ إن الإيمان بقدر الله والرضَا بقضائه يُورثُ طمأنينة القلب وانشراح الصدر، فلا تجد عبدًا مؤمنًا بالقضاء والقدر راضيًا بهما ثم تراه حزينًا مهمومًا ولا ساخطًا حاسدًا للآخرين ولا متكبرًا متعاليًا على الخلق.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

قيل: يُصدِّق ويَعلم أَنَّهُ لا يصيبُه مصيبة إلا بإذن الله ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾، للصَّبر والرِّضا وقيل: يُثبِّتُهُ على الإيمان.

وقال ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هو أن يجعل الله في قلبِه اليقين، ليعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئَه، وأنَّ ما أخطأه لم يكنْ ليصيبَه[١] وثَمَّ أقوال أخر، وكلُّها متقاربة في المعنى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر].

وقال رسول الله ﷺ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**»[٢] والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرةٌ لأهمية هذا الركنِ من أركان الإيمان.

إنَّ تَدَبُّر كلامِ الله تعالى وكلامِ رسوله ﷺ في القدر يُفضي بالعبد إلى الإيمان والرضَا بقضاء الله وقدره فإذا تقرَّر ذلك لم يحزن على فوات حظٍّ من حظوظ الدنيا ولن يحزن على ضرر لحقَ بِه في ماله أو نفسه أو ولده إلا بالقدْر الذي لا يُخرِجه عن حدِّ الرضا بالقضاء والقدَر فقد حزن رسول الله

---

(١) أحكام القرآن للقرطبي (١٨/ ١٣٥).

(٢) صحيح، تقدم تخريجه.

ﷺ وبكي على فقدِ ولده إبراهيمَ ولم يُخرِجْه ذلك عن كمال الرضا.

فقال ﷺ: «**تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ ولا نَقُولُ إلا مَا يَرْضَي رَبُّنَا وَالله يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا بِكَ لَمحزُونُونَ**»(١) فكما أنَّ الإيمان بالقدر حماية للقلبِ من السخط والحزن والهمِّ والنكد كذلك فهو حماية للقلبِ من الحسد والحقد والغل والشماتَة وما أشبه ذلك من الأمراض.

وكذلك إذا أنعمَ الله على عبده بصنوف النِّعَم من المال والأولاد والجاه والرياسة وجعله عزيزًا في قومه، إذا كان العبد مُؤمنًا بالقدر وعنده فهمٌ عن الله، دفعَه ذلك إلى الشكرِ لعلمه علم اليقين أن كلَّ ما عنده محضُ فضلٍ من الله ولو شاء الله أن يمنعَ عنه النِّعم فلن يستطيع حفظ نعمةٍ واحدةٍ بكل ما أوتي من أسباب، وفي الحديث: «**اللهمَّ لَا مَانِعَ لِما أَعْطَيْتَ ولا مُعْطِيَ لِما مَنَعْتَ ولا يَنْفَعُ ذَا الجدِّ مِنْكَ الجَدُّ**»(٢).

فإذا أيقن العبد بذلك طَهُرَ قلبُه من مرضِ الكبر والعجب والغرور والاستعلاء واحتقار الآخرين، وتركَ الفخر والخيلاء لعلمه أنَّه عبد مملوك وكل ما بِه من نعمة فمن الله تعالى، ولهذا نجد العبد المؤمن يتقلَّب بين الصبر والشكر قال رسول الله ﷺ: «**عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّه خَيْرٌ وَلَيْسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ إن أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكان خَيْرًا له وَإن**

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥)، واللفظ له، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكان خَيْرًا له»[١].

حصول النعمة للعبد ليس دليلًا على رضا الله عنه، والمنع ليس دليلًا على سخط الله عليه:

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر]، فقد عَلَّق الإنسان- الذي لا يعلم شيئًا عن الله- إكرام الله له أو إهانَتَه على العطاء أو المنع فقال سبحانه﴿كَلَّآ﴾، أي ليس الأمر كذلك فلا يخفى على أحد أنَّ الله سبحانه وتعالى قد أنعمَ على الكفار بصنوف من النعمِ، قد لا تكونُ عند كثير من عباده الموحدين فقد أعطاهُم المال والجمال والحضارة وغير ذلك من نعيم الدنيا وهم أبغضُ الخلق إليه، وقد يمنعُ عبده المؤمن من النِّعم وهو من أحب النَّاس إليه، قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله عز وجل يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ فِي الدنيا وهو يُحِبُّهُ كما تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تخافُونَ عليه**»[٢] وقد قدّمنا جملةً من الأحاديث الدالة على أنَّ أشدَّ النَّاسِ بلاءً الأنبياءُ وأن الرجل يُبتَلَى على قدْر دينه، فمن تدبَّر قول الله تعالى وقول رسوله في هذه المسألة تبيَّن له الصواب وزال اللبس الذي قد يكون عند كثير من النَّاس.

كيف نؤمن ونرضى بقضاء الله تعالى وقَدَره؟

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٩٩)، من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) صحيح، تقدم تخريجه.

ابتداءً لابدَّ أن يكون عند العبد الموحد يقينٌ لا شكَّ فيه بكلِّ ما جاء في كتاب الله تعالى وكل ما أخبرنا به رسوله ﷺ فمن الأحاديث التي يَنبَغي للعبد أن يتدبَّرها ويعيَها جيدًا الحديث القدسي الذي أخرجه الإمام مسلم بسنده عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ فيما يروي عن الله تباركَ وتعالى أنَّهُ قال: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي وَجَعلْتُهُ بَيْنكُمْ مُحرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا على أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذلك في مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذلك مِنْ مُلْكِي شَيئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنسكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا في صَعيدٍ وَاحدٍ فسَأَلُوني فَأَعْطيْتُ كُلَّ إنسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذلك مِمَّا عِنْدِي إلا كما يَنْقُصُ المخْيَطُ[1] إذا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثم أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فمن وَجدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ الله وَمَنْ وَجدَ غَيْرَ ذلك، فَلاَ يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ**»[1].

---

(١) المخيط: هو الإبرة.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

الشاهد من الحديث: حصول اليقين للعبد بأنَّ الله تعالى مالك الملك يتصرف في ملكه بأمرِه وبعلمه كما يشاء، لا يُعجزهُ شيءٌ في السَّموات ولا في الأرضِ، فلو أَعطَى الأولين والآخرين ما نقص ذلك من ملكه شيئًا، وإذا منع الأولين والآخرين ما زاد ذلك في ملكه شيئًا، فقد يقول قائل: إذا كان الأمر كذلك إذًا لماذا حرمني الأولاد ويقول الثاني لماذا ابتلاني بالفقر والمرض ويقول ثالث لماذا سلط عليَّ أعداءه كما يحدث لكثير من المسلمين في شتى بقاع الأرض لماذا فعل بي كذا وكذا، فقد يقف العبد حيرانَ لا يكاد يجد إجابةً عن مثل هذه التساؤلات، وذلك لأنَّه لم يعرف اللهَ سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته.

الله تبارك وتعالى حكيمٌ عليمٌ خبيرٌ، حكيمٌ: يضعُ الشيء في محله الذي لا يصلح أن يكون في غيره عليمٌ: يعلم السرَّ وأخفَى، خبير: بحال عبده وما يحتاج إليه، يعلم ما يُصْلِحُه وما يُفْسِدُه فالعبد الذي ابتُلِيَ بالفقرِ لابدَّ أن يعلم أنَّ الفقر هو دواؤُه ولو أعطاه الله المال ربَّما كان ذلك سببًا في فساده فالمريض الذي لا يُرْجَى بُرْؤُه ربَّما كان في حال مرضه في قُرْبٍ من الله تعالى، لأنَّ المريض مُنكَسِر ذليل ملتجأ إلى ربِّه وربما أورثَه هذا الذُّلُّ والانكسارُ درجة في الجنة لا يصل إليها بعملٍ فيكون المرض خيرًا له من العافية، وهكذا ينبغي للعاقلِ أن ينظر إلى الابتلاء مِن هذا الوجه فيحصل له من الإيمان والرضَا بالقدر ما لا يحصل لغيره.

هذا وقد تظهر للعبد الحكمة من الابتلاء وقد لا تظهر، فصاحب البصيرة يستسلم استسلامًا كاملًا لقدر الله لعلمه علم اليقين الذي لا شكَّ فيه أنَّ الله سبحانه وتعالى أفعاله كلُّها كمال ليس فيها نقص بأيِّ وجهٍ من

الوجوه وذلك لأنَّ أفعاله صادرةٌ عن صفاته، وصفاته كلها كمالٌ فكذلك أفعاله.. فتأمل هذا المعنى جيدًا ولا تكن من الغافلين.

«فإن قيل: فكيف يجتمعُ الرضا بالقضاء بالمصائبِ مع شدة الكراهة والنفرة منها؟؟

وكيف يُكَلَّف العبد أن يرضى بِما هو مؤلم له، والألم يقتَضِي الكراهة والبغض المضاد للرضا، واجتماع الضدين محال؟ قيل: الشيء قد يكون محبوبًا مرضيًا من جهةٍ، ومكروهًا من جهةٍ أخرى كشرب الدواء النافع الكريه، فإنَّ المريض يَرَضى بِه مع شدة كراهته له، وكصوم اليوم الشديد الحرِّ، فإنَّ الصائم يرضى به مع شدة كراهته له، وكالجهاد للأعداء، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فالمجاهد المخلص يعلم أنَّ القتال خير له فرضِي بِه، وهو يكرهُه لما فيه من التعرضِ لإتلاف النَّفسِ وألمها ومفارقة المحبوب، ومتى قَوِي الرضا بالشيء وتمكَّن انقلبت كراهتُه محبةً وإن لم يخلُ من الألمِ فالألم بالشيء لا ينافي الرضا بِه، وكراهتُه من وجهِ لا يُنَافي محبته وإرادته والرضا به من وجهٍ آخر»[1].

سادسًا: الدعاء والتضرع مع حضور القلب:

الدعاء من أفضلِ أنواع العبادات التي يتقرَّبُ العبد بها إلى ربِّه فالعبد يثابُ على الدعاء سواء استُجيب لدعائه أم لم يستجب.

---

(١) شفاءُ العليل لابن القيم (٥٩٦، ٥٩٧).

ذلك لأنَّ الدعاء عبادة، قال رسول الله ﷺ: «**الدُّعَاءُ هو العِبَادَةُ**»(١) ثم قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر].

فالعبد الموحد حقًّا لا تكون رغبته ورهبته إلا لله ولا يطلب حاجته إلا ممن بيده الخير كلُّه وإليه يرجع الأمر كلُّه فهو الذي يملك خزائِن السموات والأرض بل عنده خزائن كلِّ شيء، قال تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]، وقال: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ [الكهف: ١٤].

وانطلاقًا من هذه النصوصِ وغيرِها كان على العبد العاقل أن يسأل الله سبحانه وتعالى صلاح قلبِه وطهارته من أمراض الشهوات والشبهات بل عليه أن يسأله في كلِّ حاجة له من حوائج الدنيا والآخرة.

قال سبحانه تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف].

﴿تَضَرُّعًا﴾: أي إلحاحًا في المسألة ودُءُوبًا في العبادة ﴿وَخُفْيَةً﴾: أي:

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٣٧٢)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (١٨٣٥٢) وغيرهما.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. انتهى، وقال الحافظ في فتح الباري (١/ ٥٩): سند جيد. انتهى، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٧٩).

لا جهرًا وعلانيةً من الرِّيَاء بل خُفيةً وإخلاصًا لله تعالى [١].

اعلم أنَّ السيف بضاربِه، وكذلك الدعاء بداعيه، فالسيف الواحد قد يقع على جذع شجرة فيقطعه لقوة ضاربِه، ونفسُ السيف قد يقع على عصا فلا يُؤثرُ فيها لضعف ضاربِه، وكذا الدعاء إذا خرج من عبدٍ صادق مخلصٍ لله تعالى مع جمعِ قلبِه على الله في الدعاء فيستجيب له لأنَّه سبحانه وتعالى أمرنا بالدعاء ووعدنا بالإجابة [٢] قال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة]، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء].

أوقات إجابة الدعاء:

ينبغي للعبد الفطنِ أن يكون على داريةٍ بأوقات إجابة الدعاء التي علَّمها رسولُ الله ﷺ أمَّتَه وحثَّهُم على الدعاء فيها فليتحرَّ هذه الأوقات وليجتهد في الدعاء فيها فَقَمِنٌ أن يُسْتَجاب له ومن هذه الأوقات :

الثلثُ الأخيرُ من الليلِ:

دليل ذلك قول رسول الله ﷺ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَك وتعالى كُلَّ لَيْلَةٍ إلى**

---

(١) تفسير السعدي (٢٩١).

(٢) وقد لا يستجاب الدعاء لأسيباب سنذكرها قريبًا بإذن الله تعالى.

السَّمَاءِ الدنيا[١] **حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَه وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ وَمَنْ يَسْتَغفِرُنِي فَأَغْفِرَ له»**[٢].

وقد جاءَت السُّنَّة بأحاديثَ كثيرةٍ ترغِّب في قيام الليل وفضل الدُّعاء فيه.

الدعاء عقب الأذان:

عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سمعَ النَّبِيَّ ﷺ يقولُ: «**إذا سَمِعْتُمْ المؤُذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثم صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً صَلَّى الله عليه بِهَا عَشْرًا، ثم سَلُوا اللهَ لِيَ الوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الجَنَّةِ لَا تَنْبَغي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ الله وَأَرْجُو أن أَكُونَ أَنَا هو فَمَن سَأَلَ لِيَ الوَسِيلَةَ حَلَّتْ له الشَّفَاعَةُ**»[١].

---

(١) أجمع السَّلف على ثبوتِ النزولِ لله، فيجب إثباتُه له من غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ ولا تكييفٍ ولا تمثيلٍ وهو نزولٌ يليقُ بالله سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى]، فصفاتُ الله فوق ما يتصور، ولذا أخفى اللهُ سبحانه وتعالى كيفية صفاته عن عبادِه رحمةً بهم وبعقولِهم القاصرةِ فألزم منهج السَّلف في باب الصفات بل وفي الدين كله، فالخيرُ كلُّه في اتباعِ النبي ﷺ وأصحابِه والتابعين لهم بإحسانٍ والشرُّ كلُّه في الابتداعِ. انظر: اعتقاد السلف وأصحاب الحديث لأبي عثمان الصابوني (ص: ٢٣٢)، والشريعة للآجري (ص: ٢٤٧)، والرد على الجهمية للدارمي (ص: ٩٠)، وخلق أفعال العباد للبخاري (ص: ٦١)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٥/ ٣٦٥) وغيرها.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٨٤).

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ قال حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللهمَّ رَبَّ هذه الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلاةِ الْقَائمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوسِيلَةَ وَالْفضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الذي وَعَدْتَهُ حَلَّتْ له شَفَاعَتِي يَوْم الْقيَامة»(١).

الدعاء بين الأذان والإقامة:

قال رسول الله ﷺ: «الدَّعْوَةُ لاَ تُرَدُّ بين الأذانِ وَالإقَامَةِ فَادْعُوا» (٢).

الدعاء في السجود:

قال رسول الله ﷺ: «فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فيه الرَّبَّ عز وجل وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا في الدُّعَاء فَقَمِنٌ (٣) أن يُسْتَجَابَ لَكُمْ» (٤).

وقال ﷺ: «أَقْرَبْ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وهو سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»(٥).

الدعاء يوم الجمعة في ساعة الإجابة:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ ذكرَ يومَ الجمعةِ فقالَ: «فيهِ سَاعَةٌ لاَ يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وهو يُصَلِّي يَسْأَلُ اللهَ شَيئًا إلا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ»(١).

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٤)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٢١)، والترمذي (٢١٢)، وأحمد (١٢٢٠٠).
وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٥٢١)، وصححه كذلك شعيب الأزناؤط في مسند أحمد (١٢٢٠٠).

(٣) قمن: حقيقٌ وجديرٌ- شرح مسلم (٢/ ٤٣٧).

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٤٧٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٤٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩٣٥)، ومسلم (٨٥٢).

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ فِي الْجُمُعَةِ لَسَاعَةً، لاَ يُوافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ فيهَا خَيْرًا إلا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَهِيَ بَعْدَ الْعَصْرِ**»(١).

وعن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، قال: قال لي عبدُ الله بنُ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أسمعت أباكَ يحدثُ عن رسول الله ﷺ في شأنِ ساعةِ الجمعةِ؟ قال: قلتُ: نعم، سمعتُه يقولُ: سمعتُ رسُولَ الله يقولُ: «**هِيَ مَا بين أن يَجْلِسَ الإِمَامُ إلى أن تُقْضَي الصلاةُ**»(٢).

اختلف العلماء في تحديد ساعة الإجابة يوم الجمعة.

قال ابن عبد البر: والذي يَنبغي لكلِّ مسلمٍ الاجتهاد في الدعاء للدين والدنيا في الوقتين المذكورين رجاء الإجابة فإنَّه لا يخيبُ إن شاء الله(٣).

دعاء من تعارَّ بالليلِ:

قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَعَارَّ(٤) مِنَ اللَّيْلِ فَقال: لاَ إِلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، له المُلْكُ، وَله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ الحمدُ لله، وَسُبْحَانَ الله ولا إِلَهَ إلا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله ثم قَال: اللهمَّ اغْفِرْ لي**

---

(١) صحيح بشواهده: أخرجه أحمد (٧٨٠٣)، وعبد الرزاق في المصنف (٥٠٦١).
قال شعيب الأرناؤط في مسند أحمد (٧٨٠٣): حديث صحيح بشواهده.
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٨٥٣).
(٣) التمهيد (٢/ ٢٦١).
(٤) تعار: قيل انتبه وقيل تكلم، وقيل علم، وقال الأكثر: التعارُ: اليقظةُ مع صوتٍ وقال ابنُ التين: ظاهر الحديث أنَّ معنى تعار: استيقظَ لأنه قال: «من تَعارَّ فقال» فعطف القول على التعار- الفتح (٣/ ٤٨).

-أَوْ دَعَا- اسْتُجيبَ فَإن تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلاتُهُ»[١].

الدعاء في ليلة القدر:

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قالَتْ: قلتُ يا رسولَ الله! أرأيتَ أن عَلمتُ أيَّ ليلةٍ ليلةُ القدرِ، مَا أقولُ فيهَا؟ قال: «**قُولِي اللهمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**»[٢].

دعاء الصائمِ قبل أن يُفطَر:

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**ثَلاثُ دَعَواتٍ لا تُرَدُّ: دَعْوَةُ الوَالِدِ لِوَلَدِهِ وَدَعْوَةُ الصَّائِمِ وَدَعوَةُ المَسَافِرِ**»[٣].

فدعاء الصائم مستجابٌ مطلقًا وليس كما يعتقد كثيرٌ من النَّاس أن وقت إجابة دعاء الصائم قبل الإفطار مباشرة، فالأحاديثُ تدل على غير ذلك، فله أن يدعوَ ما بين الفجر إلى المغرب في أيِّ ساعة يشاء.

دعاء يوم عرفة:

قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَومِ عَرَفَةَ وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لاَ إِلَهَ إِلا اللهُ وَحدَهُ لا شَريكَ له، لَه الملكُ وَلَه الحمْدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ**»[١].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١١٥٤)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠)، وأحمد (٢٥٣٨٤)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٥١٣).

(٣) صحيح: أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٦٤٨٥)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١٩١٥)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٠٣٢).

(١) صحيح لشواهده: أخرجه الترمذي (٣٥٨٥)، قال الترمذي: هذا حديث غريب من =

من آداب الدعاء:

العبد الكيس الفطن يعلم أَنَّهُ ضعيف فقير ذليل لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فإذا أراد أن يدعُو سيِّدَه ومولاه وخالقَه ورازقَه ومدبِّر أمرِه وجب عليه أن يحمدَه ويُمَجِّدَه ويُثْنِي عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى ثم يُصلي على نبيِّه ﷺ ثم يدعُو الله بعد ذلك بما شاء الله له أن يَدعُو.

عن فَضَالَةَ بنِ عبيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعَ رسولُ الله ﷺ رَجلًا يدعو في صلاتِه لم يمجد الله تعالى ولم يصلِّ على النبي ﷺ فقال رسولُ الله ﷺ: «**عَجِلَ هذا**» ثم دَعَاه، فقال له أو لغيرِه: «**إذا صَلَّى أَحَدُكُمْ، فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ رَبِّهِ وَالثَّناءِ عليه، ثم لِيُصَلِّ عَلى النبي ﷺ ثم لِيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاء**»(١).

موانع استجابة الدعاء:

=

هذا الوجه وحماد بن أبي حميد هو: محمد بن أبي حميد، وهو أبو إبراهيم الأنصاري المديني وليس هو بالقوي عند أهل الحديث. انتهى. وقال ابن حجر في التلخيص الحبير (٢/ ٤٨٤): وفي إسناده حماد بن أبي حميد وهو ضعيف. انتهى. وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٣٥٨٥).

وله شاهد من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز، أن رسول الله ﷺ قال: أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أخرجه مالك في الموطأ (٣٢)، وهو مرسل صحيح.

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٨١)، والترمذي (٣٤٧٧)، والنسائي (١٢٨٤)، وأحمد (٢٣٩٣٧).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. انتهى، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٨١).

قد يدعُو العبد ربَّه ولا تستجاب دعوته، وذلك لأسبابٍ كثيرة، منها:

أولًا: الدعاء بالإثم وقطيعة الرَّحم:

دليل ذلك قول رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا**» قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ؟ قال: «**اللهُ أَكْثَرُ**»(١).

ثانيًا: المطعم الحرام والملبس الحرام:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلا طَيِّبًا.. ثم ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالحَرَامِ فأني يُستجَابُ لِذلك؟**»(٢).

ثالثًا: اليأس من رحمة الله تعالى:

من النَّاسِ من يدعُو ويكرِّر الدعاء مرةً أو مرات، فإذا لم يُسْتَجَبْ له يَئِسَ وترَك الدُّعاء فيُمنعُ الخير.

قال رسول الله ﷺ: «**يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ فَيَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ رَبِّي فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي**»(١).

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١١١٣٣)، وأبو يعلى (١٠١٩)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٦٣٣).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٥).

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خاتمةٌ

صفةُ القلبِ السَّليمِ

القلب السَّليم الذي يَنجُو من عذاب الله هو القلب الذي قد سَلِمَ من هذا وهذا [١] فهو القلب الذي قد سَلِمَ لرَبِّه، وسَلِمَ لأمرِه ولم تبق فيه منازعة لأمرِه ولا معارضة لخبره، فهو سليم مما سوى الله وأمره، لا يريد إلا الله ولا يفعل إلا ما أمره الله وحده، غايته وأمره وشرعه ووسيلته وطريقته، لا تعترضه شبهةٌ تَحُول بينه وبين تصديق خبره، لكن لا تمرُّ عليه إلا وهي مجتازة تعلمُ أنَّهُ لا قرارَ لها فيه ولا شهوة تَحولُ بينه وبين متابعة رضاه.

ومتى كان القلب كذلك، فهو سليمٌ من الشك، وسليم من البدعِ وسليم من الغيِّ [٢] وسليم من الباطلِ، وكلُّ الأقوال التي قيلت في تفسيرِه فذلك يتضمَّنُها.

وحقيقتُه: أنَّهُ القلب الذي قد سَلِمَ لعبُوديَّة ربِّه، حبًّا وخوفًا وطمعًا ورجاءً، ففني بحبِّه عن حبِّ ما سواه وبخوفه عن خوف ما سواه، وبرجائه عن رجاء ما سواه، وسَلِمَ لأمرِه ولرسوله تصديقًا وطاعةً كما تقدَّم، واستسلم لقضائه وقدره فلم يتَّهِمْه ولم ينازعْه ولم يتسخَّطْ لأقداره فَأسلَمَ لربِّه انقيادًا وخضوعًا وذلًا وعبوديةً، وسلَّم جميع أحواله وأقواله وأعماله وأذواقه ومواجيده ظاهرًا وباطنًا من مشكاة رسوله، وعرض ما جاء من

---

(١) يعني: سلم من الشهوات والشبهات.

(٢) الغيّ: الفسادُ قال ابن بري: غَوٍ هو اسمُ الفاعلِ من غَوِي لا من غَوَى- اللسان (٦/ ٧٠٢).

سواها عليها فما وافقَها قَبِلَه وما خَالفَها رَدَّهُ، وما لم يتبيَّنْ له فيه موافقة ولا مخالفة وقف أمْرَه وأَرْجَأَهُ [١] إلى أن يتبيَّن له وسَالَمَ أولياءه وحزبه المفلحين الذَّابِّين عن دينه وسنة نبيِّه والقائمين بها وعادى أعداءَه المخالفين لكتابِه وسنة نبيِّه الخارجين عنهما الداعين إلى خلافهما [٢].

الحمدُ لله حمدًا كثيرًا طيِّبًا مُبَاركًا كما يَنبَغي لجَلال وَجْهِه وعَظْيمِ سُلطَانه.

تم بحمد الله ومنه وفضله وتوفيقه

(١) أرجأه: أخَّرَه.

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٢٠٠).

الفهرس

مصنفات المؤلفة ٣
تنويه ٥
المقدمة ٦
المرض الأول: الشرك الأكبر ٨
المرض الثاني: الرياء ١١
درر لابن الجوزي في كشف الرياء ١٦
المرض الثالث: الأنفة من المسكنة لله تعالى ٢٤
المرض الرابع: حب التفاخر والمباهاة بالدنيا ٢٦
المرض الخامس: الخيانة ٢٨
المرض السادس: الحسد ٣١
أضرار الحسد على الحاسد في الآخرة ٣٣
الأضرار على الحاسد في الدنيا ٣٦
ما الفرق بين العين والحسد؟ ٣٨
كيف يندفع شر الحاسد عن المحسود؟ ٣٩
المرض السابع: سوء الظن ٤٩
المرض الثامن: احتقار المسلمين ٥١
المرض التاسع: احتقار الذنوب ٥٣

المرض العاشر: النفاق العقدي ٥٥
المرض الحادي عشر: النفاق العملي ٥٩
المرض الثاني عشر: الاغترار بالله تعالى ٦٢
الغرور بالأماني ٦٥
من صور الغرور بالأماني ٦٦
المرض الثالث عشر: الأمن من مكر الله ٧١
الفرق بين الاغترار بالله تعالى والأمن من مكر الله ٧٣
المرض الرابع عشر: القنوط من رحمة الله ٧٨
الترهيب من تقنيط عباد الله من رحمة الله ٨١
المرض الخامس عشر: التسويف بالتوبة ٨٣
المرض السادس عشر: العجب ٨٩
المرض السابع عشر: الكبر ٩٤
المرض الثامن عشر: غفلة القلب ١٠١
المرض التاسع عشر: الغدر وعدم الوفاء بالعهد ١٠٧
عقوبات الغدر وعدم الوفاء بالعهد ١١٠
المرض العشرون: الشماتة والتربصُ بالدوائر ١١٤
المرض الحادي والعشرون: الهوى ١١٧
علاج الهوى ١٢١
المرض الثاني والعشرون: غلظة القلب ١٢٦
المرض الثالث والعشرون: الحرص وطول الأمل ١٣٠

المرض الرابع والعشرون: الطيرة ١٣٥
المرض الخامس والعشرون: الاستهانة بالنعم ١٣٩
المرض السادس والعشرون: استعظام الدنيا والاستهانة بمصائبِ الدين ١٤٣
المرض السابع والعشرون: قلة الحياء من الله ١٤٧
المرض الثامن والعشرون: كراهية ما أنزل الله ١٥٣
المرض التاسع والعشرون: سوء الظن بالله ١٥٦
المرض الثلاثون: العشق ١٦١
أضرار العشق ١٦٥
محبة الزوجين ١٦٨
المرض الحادي والثلاثون: ضعف الغيرة لله ١٧٠
المرض الثاني والثلاثون: الخوف من غير الله ١٧٤
أنواع الخوف ١٧٥
المرض الثالث والثلاثون: التوكل على غير الله ١٧٧
التوكلُ ينقسم إلى ثلاثةِ أقسامِ ١٨١
المرض الرابع والثلاثون: ضعف الإيمان بالقدرِ ١٨٣
المرض الخامس والثلاثون: حب البدعة ١٨٩
فصل نافع جدًّا عظيم النفع لكل مسلم ١٩٥
العلاج ٢٠٢
أولًا: تلاوة القرآن بالتدبر والتفكر ٢٠٢

ثانيًا: اتباع رسول الله ﷺ ومصاحبة أهل العلم والفضل ٢٠٤
ثالثًا: إدامة النظر في أحاديث رسول الله ﷺ ٢٠٦
رابعًا: ذكر الله تبارك وتعالى ٢١٠
خامسًا: الأيمان بقدر الله تعالى والرضا بقضائه ٢١٢
سادسًا: الدعاء والتضرع مع حضور القلب ٢١٨
خاتمة: صفة القلب السَّليم ٢٢٧
الفهرس ٢٢٩